المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي
عصر ولاة السلاجقة في الموصل

٤٨٩-٥٢١هـ/١٠٩٥-١١٢٧م

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
المقدمة
القسم الاول : الولاة والقوى الاسلامية (الصراع الداخلي)
تمهيد
الموصل بين عهدين
قوام دولة ابو سعيد كربوقا ٤٨٩-٤٩٥هـ :
شمس الدولة جكرمش ٤٩٥-٥٠٠هـ :
جاولي سقاو ٥٠٠-٥٠٢هـ :
مودود بن التونتكين ٥٠٢-٥٠٧هـ :
جيوش بك ٥٠٧هـ (الولاية الاولى):
آق سنقر البرسقي ٥٠٧-٥٠٩هـ (الولاية الاولى) :
جيوش بك ٥٠٩-٥١٤هـ (الولاية الثانية) :
آق سنقر البرسقي ٥١٥-٥٢٠هـ (الولاية الثانية) :
خارطة رقم (١) اقليم الجزيرة.
خارطة رقم (٢) سوريا الشمالية.
عز الدين مسعود بن البسقي ٥٢٠-٥٢١هـ :
أخو عز الدين مسعود الاصغر (؟) ٥٢١هـ القسم الثاني :
القسم الثاني : الولاة والصليبيون (الجهاد).
قوام الدولة كربوقا ٤٨٩-٤٩٥هـ = ١٠٩٥-١١٠١م.
شمس الدولة جكرمش ٤٩٥-٥٠٠هـ = ١١٠١-١١٠٦م.
جاولي سقاوة ٥٠٠-٥٠٢هـ = ١١٠٦-١١٠٨م.
مودود بن التونتكين ٥٠٢-٥٠٧هـ = ١١١٤-١١١٥ ،١١٢٦،١١٢١م.
قائمة المصادر والمراجع.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تاريخ الموصل حلقات يتلو بعضها بعضا، منها ما تميز بالنشاط السياسي أو الابداع الحضاري أو كليهما معا، ومنها ما لم يتميز بشيء، سواء كان نشاطا سياسيا أو ابداعا حضاريا.. منها ما كانت الموصل تتمتع فيه بارتباط مباشر بجسد الدولة الاسلامية : راشدية أو اموية أو عباسية أو عثمانية، ومنها ما كانت تمارس فيه ما يسمى اليوم بالحكم الذاتي أو الاستقلال المحلي. وتارة ثالثة كانت تنفصل عن مركز الدولة انفصالا تاما حيث تقوم فيها امارات مستقلة تدوم عقودا من الزمن، وقد تدفعها الظروف والاوضاع إلى اعلان عدائها للمركز، والدخول في صراع طويل الامد معه، في تلك الفترات التي يسود فيها الامن النسبي حدود بلاد الاسلام.. فيدفع الترف والبطر والسلم، تلك البلاد إلى التمزق والتبعثر والتقاتل فيما بينها، كل يريد مزيدا من الاستقلال، ومزيدا من الاراضي والمواقع والحصون. اما في الفترات التي يدهم فيها ثغور المسلمين عدو جديد، فان ثقل المقاومة والصراع يعود لينصب في اماكنه الطبيعية على الحدود والمناطق التي دهمت.. هناك، حيث الدفاع عن حرية العقيدة والارض الاسلامية، وحيث حماية الوجود الاسلامي من التشتت والفناء. ولقد مرت الموصل بهذه الادوار جميعا.. قاتلت في الداخل، وجاهدت في الخارج، وفرق كبير بين القتال والجهاد. وكانت مرحلة (ولاة السلاجقة) التي نتكلم عنها في هذا البحث، كما كانت الفترة التي اعقبتها، والتي تكلمنا عن نشوئها وتأسيسها على يد عما الدين زنكي في البحث الموسوم باسمه.. كانت هذه الفترة مثلا واقعيا مشهودا على هذا الدور المزدوج الذي كانت الموصل تمارسه على كلتا الجبهتين.

إن التمزق الذي اصاب جسد الدولة الاسلامية بعد مرور عقود فحسب على نجاح العباسيين في تأسيس دولتهم، وظهور عدد من الامارات والمدن المستقلة، في انحاء شتى من العالم الاسلامي، رغم انه يعد بحد ذاته ظاهرة سلبية وعرضا مرضيا خطيرا يدعو للتأمل والنقد، الا ان أمة متحضرة كالامة الاسلامية في ذلك العصر، كان بامكانها ان تحول هذه الظاهرة، التي تبدو حتمية مقفلة والامناص مما قاله الله سبحانه وتعالى : **{... وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ }** (آل عمران ، الآية ١٤٠) ... تحولها إلى (حركة) ايجابية مثمرة في مجالي السياسة والحضارة... حيث صرنا نجد عددا من الدويلات تنشأ حيوية قوية، لكي ترد على العدوان الذي كان يتهدد حدود الاسلام باستمرار في الغرب والشرق والشمال، في وقت كان مركز الدولة الاسلامية فيه يعاني مرضا وشيخوخة زمنية وارهاقا وغيابا مكانيا، لم تتح له ان يقوم بالتصدي الفعال لهذه الاخطار.. كما

صرنا نجد عددا من الدويلات تنشأ لكي تزيد من حدة التنافس الحضاري بين امارات المسلمين، ولكي تعمق مجرى الحضارة الاسلامية وتغنيها بمزيد من المعطيات، الامر الذي دفع تلك الحضارة خطوات واسعة عريضة إلى الامام... ثم اننا صرنا نجد عددا من هذه الدويلات يعيد بعث روح الجهاد في نفوس المسلمين، ويصوغ تنظيمات عسكرية وعقيدية وسياسية لتحقيق هذا الهدف العظيم الذي لولاه لما قامت للاسلام قائمة. ولو ان تمزقا جغرافيا وسياسيا كهذا اصاب امة منحلة متعبة مكدودة، لأطاح بها وبمقدراتها، ولقدمها لقيمات سائغة لاولئك المتربصين بها على الحدود، وشواهد التاريخ كثيرة كثيرة في هذا المجال.

هذا هو القانون الحضاري الذي لا يخطئ : ان امة تتميز بالتحضر والحيوية – وهما بلاشك امران متلازمان – بمقدورها ان تحيل كل ظواهر الهدم في جسد الامة إلى قيم انشاء وابداع وبناء، لان الانسان هو الذي يتحكم في صياغة الظروف الخارجية، ان امتلك زمان نفسه وسعى دوما إلى ممارسة عملية التغيير الذاتي التي اعلن عنها القرآن الكريم في قانونه الثابت **{ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ }**... ان الفيضانات الخطيرة، قوة هائلة مدمرة، ولكن (الانسان) هو الذي يحيلها إلى اداة تنمية واستثمار أو يتركها تغرق المزارع والحقول، وتكتسح المواقع والقرى.. وانه لتحد خطير يطرحه الله سبحانه لكي يستثير همة الانسان وحيويته وفاعليته، على نطاق (الطبيعة) حيث الصواعق والزلازل والفيضانات والاعاصير... وعلى نطاق (التاريخ) حيث النشوء والسقوط، والسلم والحرب، والتحضر والهمجية، يلفها جميعا قانون الله الثابت **{... وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ }** (آل عمران ، الآية ١٤٠)!!

هكذا استطاع (المسلم) ان ينطلق من نقطة الضعف هذه، حيث تمزق الدولة الواحدة إلى مدن واقاليم ودويلات، إلى افاق القوة والتحضر والابداع.. وبدلا من ان يستسلم للظاهرة ويجلس قابعا في حدود امارته المنشقة، نجده يقف متحفزا للحركة من اجل عالم الاسلام كله، بمجرد ان تتاح له القيادة الصالحة المرنة الذكية المخلصة المجاهدة التي تعرف كيف توجه الحركة إلى هدفها المطلوب.. هكذا لعب (الادراسة)، دورهم في المغرب، في مد الاسلام إلى قلب القارة السوداء عبر مسالكها الشمالية الغربية، وكانوا اول من مهد الطريق للنشاط الواسع الذي مارسه الدعاة إلى الاسلام في تلك القارة.. وهكذا لعب (الاغالبة) في تونس، دورهم في صد خطر البيزنطيين تجاه السواحل الافريقية، وفي تحويل موقف الدفاع الذي اتخذته هذه المنطقة إلى هجوم استمر عقودا طويلة من الزمن، واستطاع ان يجلي بواسطته قوات البيزنطيين إلى داخل القارة الاوربية، وان يكتسح جزرهم في البحر المتوسط لكي لايلبث ان يحيل هذا البحر العظيم إلى بحيرة اسلامية، وينشئ في جزرها ومرافئها حضارة ثرة كانت احدى الجسور التي انتقلت عليها حضارة المسلمين إلى الغرب... وهكذا لعب (الطولونيون) في مصر والشام دورهم في

ايقاف محاولات البيزنطيين الارتداية صوب بلاد الشام .. وهكذا لعب (الحمدانيون) في حلب دورهم المشهور في صد تلك المحاولات نفسها، وهي على اعنف ما تكون، وتمكنوا من كسر حدتها... وهكذا لعب (السامانيون) فيما وراء النهر دورهم في نشر الاسلام والثقافة الاسلامية في اقاليم التركمان الوثنية الشاسعة الممتدة حتى اطراف الصين، وفي تحويل هذه القوى البدوية التي لا تعرف السلم والاستقرار إلى قوة بشرية مسلمة مثقفة مستقرة ، مارست دورها – فيما بعد – على طريق الاسلام.. وهكذا لعب (الغزنويون) و(الغوريون) من بعدهم، في شمال الهند، ازاء الهنود الوثنيين نفس الدور الذي لعبه رفاقهم السامانيون من قبل ازاء الاتراك.. وهكذا ايضا ظهرت دولتا (المرابطين) و(الموحدين) في المغرب لكي تعيدا للجهاد الاسلامي مفهومه الثائر العميق، ولكي تنشأ التنظيم الذي يكفل تحقيق هذا الهدف ، ولكي (تتحرك) هذه التنظيمات للدفاع في الوقت المناسب عن مقدرات الاسلام والمسلمين في وقت كانت القوى الصليبية تتحرك فيه لتوجيه ضربة ماحقة للجناح الغربي من عالم الاسلام... ثم اذا ما التفتنا إلى (الموصل) في الفترة التي ينصب عليها بحثنا هذا، وجدناها تسهم هي الاخرى، سواء في عهد (ولاة السلاجقة) أم في عهد (الاتابكة)، اسهاما قياديا مباشرا وخطيرا ضد الغزو الصليبي في حملته الاولى على الجناح الشرقي لعالم الاسلام !!

إن حضارة الاسلام، كما اكد كثير من المستشرقين والمؤرخين هي حضارة (الوحدة والتنوع)، ولقد انعكست هذه السمة الاصيلة على ظاهرة نشوء الدويلات في عالم الاسلام.. فصرنا نجد تنوعا في التشكيلات السياسية التي انشقت عن جسد الدولة، وصرنا نجد في الوقت نفسه وحدة وتجانسا وتعاطفا في العطاء الحضاري، وفي الاساليب والاهداف الكبرى... وفيما عدا حالات معدودة لهذه القاعدة الشاملة، حالات ظهر فيها عدد من الدويلات تبنّت مبادئ وعقائديات باطنية اباحية هدامة، ذات جذور فارسية ويهودية، غريبة عن عقيدة الاسلام وتصوره وقيمه، دويلات لمت شعت مبادئها الغريبة هذه من نظريات رجعية موغلة في البعد عن جوهر التوحيد وسماحة الاسلام وانكشافه وحريته.. دويلات مارست قواها الذاتية، لا في الدفاع عن

أرض الاسلام وعقيدته ووجوده، وانما ضد ارض الاسلام وعقيدته ووجوده[١] بل ان بعضها سعى إلى عقد محالفات ومواثيق مع الاعداء الخارجيين المتربصين على الحدود والثغور[٢]. فيما عدا

---

(١) رغم دفاع بندلي جوزي المستميت عن الحركات الباطنية والاسماعيلية وتمجيده لدولة قرامطة البحرين باعتبارها جمهورية شيوعية ، فإنه لم يستطع ان يطمس كل وقائع التاريخ التي تدين هذه الحركات والتي سعى إلى التشكيك بصحتها باعتبارها صادرة عن اعداء القرامطة ... وارغم على سرد تفاصيل مذبحة مكة عام (٣١٧هـ) التي ثبتتها جل التواريخ، حيث قال " لم يكد سليمان ابو طاهر الجنابي ، زعيم قرامطة البحرين يدخل عاصمة بلاده ، بعد استيلائه على البصرة عام (٣١٥)، حتى اخذ يستعد بأمر ، كما يظهر لنا ، من (صاحب الزمان) لغزوة بعيدة لم يقم عليها قبله احد ممن دخل في دين النبي العربي ، فلم يطلع على عزمه وغايته احدا إلى ان تمت معدات السفر فترك عاصمة بلاده وخرج يريد بيت الله الحرام ليضرب الاسلام في صميم قلبه ويقضي عليه في منشئه ان استطاع إلى ذلك سبيلا . ولعل قصده من هذه الغارة كان ان يقضي ايضا على هيبة خلفاء بغداد ونفوذهم السياسي والادبي في دار الاسلام. ودخلت سنة (٣١٧ = ٩٣٠م) وليس فيها ما يدعو إلى القلق ، فاخذت ألوف الحجاج ترد إلى بيت الله آمنة لا هم لهم إلاّ قضاء شعائر الحج والعودة إلى بلادهم سالمين مطمئنين . لكنهم لم يكادوا يتمون هذه الشعائر حتى جاءتهم الاخبار ان ابا طاهر زاحف على مكة في جيش مؤلف من (٦٠٠ فارس و٩٠٠ رجل) .. وبعد ايام دخلوا مكة واخذوا يقتلون اهاليها ومن كان فيها من الحجاج من رجال ونساء (وهم متعلقون بالكعبة ، وردم بهم زمزم وفرش بهم المسجد وما يليه ، وقتل في سكة مكة وشعابها من اهل خراسان والمغاربة وغيرهم زهاء ثلاثين الفا وسبى من النساء والصبيان مثل ذلك واقام بمكة ستة ايام ولم يقف احد تلك السنة بعرفة ولا فى نسكا). وكان اشد الناس قساوة واقلهم رحمة ابو طاهر نفسه فكان ينتقل من مكان إلى آخر في الكعبة ومكة ومن جماعة إلى جماعة اخرى وهو يدعو اصحابه وقد ثملوا بسورة الفتح وما غنموه من المال والحلى ، ان اجهزوا (على الكفار وعبدة الاحجار) ودكوا اركان الكعبة واقتلعوا الحجر الاسود حتى لا يبقى منه اثر .. واستمر ابو طاهر واصحابه يعملون السيوف في اهالي مكة وحجاج بيت الله ، وينبهون اموالهم ويأتون من الافعال ما تقشعر له الابدان واخذوا كل ما وصلت اليه ايديهم من الحلى الثمينة والتحف القديمة التي كانت معلقة على جدران الكعبة .. ونقلها ابو طاهر إلى عاصمة بلاده أو كسرها ثم ذراها في الهواء حتى لا يبقى منها اثر .. وكان في جملة ما نهبه القرامطة من مكة الحجر الاسود الذي ظل مهجورا في الاحساء إلى ان ردوه سنة (٣٣٩-٩٥٠م) بأمر من المنصور الفاطمي .. وخرج ابو طاهر وجماعته من مكة وهم ينشدون :

فلو كان هذا البيت لله ربنا لصب علينا النار من فوقنا صبا

لانا حججنا حجة جاهلية محللة لم تبق شرقا ولا غربا

وانا تركنا بين زمزم والصفا جنائز لا تبقى سوى ربها ربا

انظر (من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام) ص١٨١-١٨٦.

(٢) يقول بندلي جوزي ، محامي الحركات الهدامة الشهير ، في كتابه آنف الذكر "لدينا من الادلة ما يكفي لان نفرض ان بابك (الخرمي) واتباعه بدأوا يفكرون بالخروج على خلفاء بغداد ويهيئون للثورة اسبابها منذ امد بعيد وانهم كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة للشروع في العمل .. نستدل على ذلك من المخابرات السرية بين بابك وامبراطور بيزنطية تيوفيل (٨٢٩-٨٤٢) وسلفه التي يرجح انها ابتدأت قبل الثورة . فقد ذكر بعض =

حالات كهذه، حيث التشكيلات السياسية الاسماعيلية بمختلف اجنحتها، والتي لا زالت بحاجة ماسة إلى دراسات اصيلة لتفحص دوافع نشوء الحركات المذهبية التي اقامتها، واهدافها، وارتباطاتها السرية مع الحركات المجوسية والصليبية واليهودية، دراسات تنظر بعمق وموضوعية إلى الارضية الاجتماعية الظالمة التي الجأت الكثير من البائسين والمظلومين إلى الانضواء اليها، ولكنها لا تغفل في الوقت ذاته عن تركيب (القيادات) وعلاقاتها وارتباطاتها، الامر الذي قادها إلى الوقوف، لا بوجه السلطة كجهاز سياسي متعسف، ولكن بوجه الاسلام كعقيدة وتنظيم، والى الصراع، لا مع بني العباس، كقيادة عربية مستاثرة، ولكن مع الوجود العربي نفسه !!

فيما عدا هذه الحالات فإن معظم التشكيلات السياسية التي شهدها عالم الإسلام ، اسهمت حسب قدراتها وطاقاتها في (خدمة) هذا العالم سياسياً وحضارياً ، ولن تغني الأمثلة الموجزة هنا عن واقع تاريخنا نفسه !!

المؤرخين ان بابك ذهب بنفسه إلى عاصمة الروم ، أو إلى الحدود البيزنطية الجنوبية ، ليدعو امبراطورها إلى الاشتراك معه في حرب عامة يعلنونها على عدوهم المشترك. لكنه يظهر لنا انه لا صحة لهذا الخبر لانه يصعب علينا ان نصدق ان بابك زار بيزنطية ايام الحرب التي نرجح انها نشبت في صيف سنة ٨١٧ أما انه زارها قبل اعلان الحرب فلا دليل على ذلك. إلاّ انه يمكننا ان نقدر ، استنادا إلى الحوادث التي سنأتي على ذكرها بعد ذلك ، ان بابك ، بعد ان عزم على الخروج على خليفة بغداد ، اطلع بواسطة احد رسله صديقه وحليفه الطبيعي ، امبراطور الروم على عزمه والغرض من خروجه ، وطلب اليه ان يمده بجيوشه. أو ان ينضم اليه بنفسه في هذه الحرب العامة التي كان يرجى منها خير لهما جميعا ان هي انتهت بسقوط عدوهما الالد. على كل حال لا ريب في ان بابك كان يستطيع ان يعول في حروبه مع خلفاء بغداد على مساعدة البيزنطيين. وبالعكس فنحن نعلم انه لما ساءت امور بابك بعد عشرين سنة صرفها في مقاومة اعظم جيش واضخم دولة في ذلك العصر ، برز لمساعدته امبراطور الروم وحاول بمناوراته على الحدود العربية (العواصم) ان يصرف قسما كبيرا من جيش الخليفة المرابط في اذربيجان عن بابك. ونعلم ايضا ان فئة كبيرة من اصحاب بابك حاربت سنة (٨٣١) تحت قيادة رجل ايراني يعرف بـ ثيوفوب في جانب البيزنطيين ، وان قسما كبيرا من جيش بابك اجتاز الحدود البيزنطية بعد ما اصاب بابك من الفشل ، ونزل في ارض الروم على الرحب والسعة وهناك تنصر. ويستدل من هذا ان صداقة قديمة قوية كانت تربط بين بابك وامبراطور الروم ان لم تكن معاهدة حربية سرية " ويمضي بندلي جوزي إلى القول بان مما زاد في حرج موقف الخلافة العباسية "انه كان بين المتآمرين بعض زعماء العرب ممن اعمت المصالح الشخصية أو العائلية قلوبهم وانستهم ، أو جعلتهم يتناسون ان الغاية الكبرى من مؤامرة بابك هي سحق السلطة العربية في تلك البلاد والقضاء على الاسلام واهله ... ولقد كان من اهم الظروف المناسبة التي ساعدت بابك على اعلان حربه ، ان الجيش الرومي اصبح ، بعد ان احتل ارمينية ، مجاورا لبلاد بابك ، فصار في وسعه ان يمده برجاله ونصائحه. ولعل هذا الامر هو الذي حمل امبراطور الروم على الزحف على ارمينيا واحتلالها .." الحركات الفكرية ، ص٨٠-٨٢،٨٥،٨٧.

وتـواريخ (المـدن) و(الامـارات) عرفهـا مؤرّخونـا منـذ عهـود مبكـرة فـي مجـال البحـث التاريخي. وقد نشأت اول ما نشأت – كما يؤكد دارسو نشأة علم التاريخ عند المسلمين – بدافع مع النقاش المستمر الذي شهدته مدن العالم الاسلامي، ضمن اطار الدولة الواحدة، حيث اخذ المؤرخون يعدون ويستعرضون، كل مناقب ومزايا المدينة التي عاش فيها ونهل من معارفها. وراح المثقف المسلم يقرأ عن مناقب بغداد او البصرة او الكوفة او دمشق... وهكذا... ورغم بعض المبالغات التي مارسها اولئك المؤرخون في كتاباتهم، فقد جاءت تواريخهم تلك معبرة عن مدى الحيوية والمرونة التي تميزت بها الحياة الاسلامية، ومدى التنافس الايجابي الذي كان يشحذ بطبيعة الحال، عقول الناس وافئدتهم الى مزيد من العطاء والانتاج والتطور.. هذا فضلا عن تلك التواريخ قدمت لنا مصادر على درجة كبيرة من الاهمية، للمؤرخ الحديث، لما تضمنته من جزئيات وتفاصيل وجوانب حضارية لا يمكن بحال ان نعثر على عشر معشارها في التواريخ العامة الشاملة.

وفي المرحلة التالية، عندما ضعف مركز الدولة، واخذت المدن والاقاليم تنفصل وتحصل علـى اسـتقلال، كامـل او جزئـي، فـي سياسـتها وادارتهـا، ازدادت تلـك التـواريخ المحليـة عـددا واتساعا... وازداد التنافس بين مؤرخي كل بلد عمقا وبعدا.. واخذت تنثال على المكتبات مؤلفات خاصـة بمدن واقاليم وامارات تنتشر على اراض شاسعة تحدها من الشرق بلاد الصين ومن الغرب بحر الظلمات. وما هذه (التآليف) في الحقيقة إلاّ صورة من صور (الايجابية) التي تميزت بها ظاهرة التنوع التي رافقت نشوء الامارات والدويلات الاسلامية.. فلو أن كل مؤرخ حرص على تدوين تاريخ مدينته، او الامارة التي يعيش فيها، لغطت ابحاثهم معظم مساحات تاريخنا، ولوجد الباحث الحديث امام عينه سيلا من المصادر التي تضم الكثير الكثير مما لا يمكن ان يعثر عليه – كما ذكرنا – في التواريخ العامة. فلا ريب ان الذي يكتب عن مساحة مكانية وزمانية محددة، يرتبط بها باكثر من رباط، يكون اكثر قدرة على الالمام بالتفاصيل والجزئيات من ذلك الذي يكتب عن تواريخ لا يحدها مكان محدود ولا زمان قريب. ونحن إذا نظرنا – فقط – إلى التواريخ المحلية في الفترة التي ينصب عليها هذا البحث لطالعتنا اسماء مؤلفات عديدة(٣).

(٣) انظر موضوع (تحليل المصادر) في كل من (عماد الدين زنكي) و(الامارات الارتقية) للمؤلف ..

وليس لباحث ان ينكر ما في بعض هذه التواريخ من (اقليمية) ومحلية نجد ملامحها السيئة واضحة في مظاهر المبالغة والتحيز وعدم التزام الموضوعية[٤] .. لكن الفوائد التي جناها ويجنيها (البحث التاريخي) من هذه المؤلفات، تغطي ولا شك على مآخذ كهذه يمكن للمؤرخ الحديث ان يستبعدها ويرفض الاخذ بها، سيما وقد توفرت امامه معلومات متكاملة تتيح له المقارنة والترجيح، والرفض أو التسليم. هذا فضلا عن ان ابحاثا (محددة) كهذه تقدم لنا نماذج كثيرة عن التطور الذي طرأ على اسلوب البحث التاريخي لدى المسلمين، حيث اخذوا يتجهون من كتابة التواريخ العامة، صوب ابحاث تتناول جوانب محددة من تاريخ الاسلام السياسي والحضاري، وتنصب على مدينة أو اقليم أو امارة محدودة بحدود زمانية ومكانية.. وهو نفس المنحى الذي تنحاه الابحاث الاكاديمية الحديثة التي تسعى – قدر الامكان– إلى اختيار تلك المواضيع التاريخية المحدودة، والابتعاد عن تلك التي تضيع الباحث بامتدادها الزمني أو المكاني، وتفقده – بالتالي – القدرة على التركيز والاستقصاء والالمام والتحليل.

والبحث الذي بين ايدينا يشمل فترة من الزمن تزيد على ثلاثين عاما تبدأ بدخول كربوقا الموصل واليا من قبل السلاجقة عام (٤٨٩هـ = ١٠٩٥م) بعد سقوط اخر امير عقيلي، وتنتهي بتأسيس اتابكية الموصل على يد عماد الدين زنكي عام (٥٢١هـ = ١١٢٧م) وقد حكم الموصل طيلة هذه الفترة عدد من الولاة الذين عينهم السلاجقة ليكونوا نوابا عنهم في ادارة شؤون (اقاليم الموصل والجزيرة) وليتولوا – في الوقت نفسه – اعباء الجهاد ضد الصليبيين الذين كانوا يقرعون – آنذاك – ابواب العراق الشمالية الغربية. وقد تأرجح موقف هؤلاء الولاة من السلاجقة بين ارتباط مباشر بهم وتنفيذ دقيق لاوامرهم وتوجيهاتهم، وبين رفض للاذعان لهم، وتمنع عن الطاعة والانتماء الكامل اليهم.. الا ان خيطا واحدا لم ينقطع طيلة هذه الفترة، ذلك هو الخيط الرسمي الذي عرفته معظم الامارات والمدن المستقلة والذي يشمل الخطبة للخليفة والسلطان، وضرب اسميهما على النقود.

ويتميز تاريخ الموصل في فترة الولاة هذه، بميزتين اساسيتين، اولا هما اسهامها في ازمات ومشاكل الصراع الداخلي الذي شهدته الدول السلجوقية في العراق والشام وبلاد فارس والاناضول وخراسان، ذلك الصراع الذي انبثق في اعقاب وفاة السلطان ملكشاه (٤٦٥–٤٨٥هـ = ١٠٧٢–١٠٩٢م) آخر سلاطين السلاجقة الثلاثة الاقوياء، بسبب رغبة خلفائه في الاستئثار بالحكم ووضع ايديهم على اكبر قدر من المدن والمواقع والاقاليم.. وقد استمر هذا الصراع فيما

---

(٤) انظر – على سبيل المثال – كتاب (الباهر) الذي ألفه ابن الاثير عن اتابكة الموصل واهداه لاحد امرائهم ، فانك ستجد المؤرخ يتحيز ويبالغ في عدد من المواضع ، سيما لدى تعرضه للصراع الذي نشب بين اولئك الاتابكة والايوبيين في مصر والشام. وانظر الهامش السابق.

بعد حتى نهاية السلاجقة في المناطق المذكورة. وقد ادلى ولاة الموصل بدولهم في غمرات هذا الصراع، تارة إلى جانب هذا السلطان والملك السلجوقي، وتارة إلى جانب ذاك. الامر الذي عرض الاقليم لكثير من المشاكل الداخلية وافقده الكثير من الطاقات البشرية والعسكرية والاقتصادية، هذا فضلا عن المشاكل والحروب (المحلية) التي شهدتها الموصل في هذه الفترة، والتي كانت تشتعل بين الحين والاخر نتيجة لمطامع الامراء المحليين ورغبتهم في الاستحواذ والاستئثار. وقد جاء القسم الاول من هذا البحث محاولة لتتبع احداث هذا الصراع بكل اطرافه، والنتائج التي تمخض عنها.

أما السمة الثانية لتاريخ الموصل في هذه الفترة، فهي الدور الكبير الذي لعبه بعض ولاتها في ميدان الجهاد ضد الصليبيين، حيث تمكنوا من توجيه ضربات عنيفة ضد الوجود الصليبي في الجزيرة والشام، في فجر حملتهم الاولى، عبر سلسة من المعارك، وبخاصة معركة البليخ عام (٤٩٧هـ-١١٠٣م) التي قادها جكرمش وحليفه الارتقي سقمان، وهجمات مودود الثلاث (٥٠٣هـ = ١١٠٩م) ، (٥٠٥هـ ،٥٠٧هـ) ، تلك التي توغل في اخرها إلى قلب فلسطين ووجه، وحليفه طغتكين حاكم دمشق، ضربات متلاحقة للصليبيين هناك. ثم كانت اهم الانتصارات التي حققها هؤلاء الولاة ضد الصليبيين، قيام البرسقي عام (٥١٨هـ = ١١٢٤م) بضم حلب إلى ولايته وتوحيدها مع الموصل، فقضى بذلك على الاخطار الصليبية المحققة التي كانت تحدق بها، واتاح للموصل – في الوقت نفسه – ان تزيد من فعاليتها في مقاومة الغزو الصليبي، نظرا لما كانت تتمتع به حلب من امكانيات اقتصادية وموقع استراتيجي هيأ لعماد الدين زنكي وابنه نور الدين، فيما بعد، ان يلعبا دورا حاسما ضد الصليبيين في المنطقة. وقد قاد ولاة الموصل بانفسهم حركة الجهاد في تلك المرحلة حينا، وانضموا حينا اخر، إلى قيادات اعلى اختارها السلاجقة في بغداد واصفهان. وتارة ثالثة كانوا يدخلون في محالفات متكافئة مع بعض الامراء المسلمين من أجل العمل المشترك ضد الاعداء. وقد رافق هذا النشاط كله، بعض (المواقف) السلبية من عدد من ولاة الموصل كانت لها – كما سنرى – تأثيرات خطيرة على سير حركة الجهاد ضد الصليبيين. وقد جاء القسم الثاني من هذا البحث تحليلا واستعراضا لدور ولاة الموصل في احداث الصراع المذكور.

إن تاريخ الموصل في عهد ولاة السلاجقة، حلقة من تاريخ هذه المدينة لم تبحث لحد الان. هذا في الوقت الذي بحثت فيه فترات اخرى، سابقة ولاحقة، بسبب قيام امارات مستقلة في الموصل استرعت انتباه الباحثين، نظرا للادوار السياسية أو الحضارية التي لعبتها، وربما لكثرة

المصادر المتوفرة عن تلك الامارات. وهكذا ظهرت ابحاث عن الموصل في عهد الحمدانيين[٥] ، والعقيليين[٦] ، والزنكيين (الاتابكة)[٧] فكان لابد من بحث (فترة الانتقال) هذه بين العقيليين والاتابكة، في دراسة مستقلة، كي تكتمل الحلقات. ولعل باحثا اخر يقوم بدراسة عن الموصل في عصورها المتاخرة : المغول ودولتي الخروف الاسود والابيض، والعهد العثماني الذي يمكن ان نجد عنه بعض المؤلفات والدراسات المتفرقة، لكي لا يبقى بعد ذلك سوى دراسة استعراضية عامة عن (الموصل في عصور الراشدين والامويين والعباسيين حتى قيام الحمدانيين)، يمكن ان نجد الكثير من مادتها في المصادر التاريخية القديمة العامة، وفي كتاب الأزدي الهام (تاريخ الموصل) الذي لا زلنا نفتقد – للأسف – أحد جزئيه ... وحينذاك يمكن القول بان تاريخ الموصل الاسلامية السياسي قد اكتمل عبر جهود عدد من الكتاب والباحثين، سيما وان جوانب (حضارية) هامة من هذا التاريخ قد تناولها الدارسون في بحوث مستقلة[٨] ، إلى جانب الفصول الحضارية التي تتضمنها الابحاث التي اشرنا اليها من قبل.

---

(٥) هناك رسالة ماجستير عن الحمدانيين في الموصل وحلب قدمها الطالب احمد محمد عدوان إلى جامعة عين شمس وكتاب الدكتور فيصل السامر عن الحمدانيين بعنوان (الدولة الحمدانية في الموصل وحلب).

(٦) هناك رسالة ماجستير لخاشع المعاضيدي عن (دولة بني عقيل في الموصل) قدمت إلى جامعة القاهرة . ونشرت مؤخراً.

(٧) بحثت هذه الامارة في ثلاث رسائل للماجستير : (عماد الدين زنكي) مؤسس الامارة للمؤلف ، (دولة الاتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي) لرشيد الجميلي ، و(امارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ) لسوادي عبد محمد. كما بحثت بشكل عام في كتاب سعيد الديوه جي (الموصل في العهد الاتابكي). وهناك المصدر الذي الفه ابن الاثير عن هذه الامارة بعنوان (التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية). هذا فضلا عما كتب عن هذه الامارات الثلاث (الحمدانية ، العقلية ، الزنكية) في دوائر المعارف ، والمؤلفات التاريخية العامة سيما تلك التي تناولت الدويلات الاسلامية. وانظر : زامباور (معجم الانساب والاسرات الحاكمة) ولين بول : طبقات السلاطين The Mohammadan Dynasties المترجم إلى العربية.

(٨) اهم هذه البحوث : كتاب (العملة الاسلامية في العهد الاتابكي) الذي قدمه محمد باقر الحسيني كرسالة للماجستير ، واطروحة عبد الوهاب العدواني عن (الادب في العصر الزنكي) واطروحة احمد قاسم جمعة عن (محاريب الموصل في العصر الاتابكي) واطروحة صلاح العبيدي عن (تحف الموصل المعدنية في العصر العباسي) وبحوث سعيد الديوه جي العديدة المتعلقة بمساجد الموصل وخططها ومدارسها ومشاهدها وحركتها العلمية، وتحقيقاته لمصنفات كل من ياسين العمري ومحمد امين العمري واحمد بن الخياط الموصلي عن تاريخ الموصل وتراجم مشاهيرها. ويمكن من اجل استكمال الاطار الشامل، ان نضيف إلى ذلك كله كل ما كتب ويكتب من تراجم ، ودراسات حديثة عن مشاهير الرجال الذين انجبتهم هذه المدينة على مر العصور ، أو احتضنتهم ردحا من الزمن ، نذكر منهم على سبيل المثال : ال الشهر زوري الذين ظهر منهم عدد من القضاة تسلموا مناصبهم في مختلف انحاء العالم الاسلامي وآل الأثير (مجد الدين وعز الدين وضياء الدين) الذين اختص احدهم بعلوم القرآن والحديث والاخر بالادب والكتابة والثالث (عز الدين) =

ثمة دافع آخر شجعني على كتابة هذا البحث، وهو ضرورة استكمال حلقات (حركة الجهاد الاسلامي) ضد الحملة الصليبية الاولى التي استغرقت ما يزيد عن نصف القرن (٤٨٩- ٥٤٣هـ = ١٠٩٥-١١٤٣م) والتي كنت قد بحثت اهم حلقاتها في رسالتي (عماد الدين زنكي) الذي قاد حركة الجهاد فيما بين (٥٢١-٥٤١ = ١١٢٧-١١٤٦م) و(الامارات الارتقية في الجزيرة والشام) التي قاد بعض امرائها هذه الحركة فيما بين (٥١٣-٥١٨هـ = ١١١٩-١١٢٤م) فكان لابد من دراسة دور ولاة الموصل الذين قادوا الحركة منذ فجر الغزو الصليبي عام (٤٨٩هـ = ١٠٩٥م حتى ٥٠٨هـ = ١١١٤م) حيث انتقلت القيادة إلى ديار بكر والشام، ثم عادت الى الموصل من جديد لتلعب دورها القيادي في هذه الحركة على يد واليها السلجوقي اق سنقر البرسقي (٥١٥-٥٢١هـ = ١١٢١-١١٢٧م) ، الذي استطاع ان يوحد حلب مع الموصل عام (٥١٨هـ = ١١٢٤م) بعد اشهر من مقتل القائد الارتقي العظيم بلك بن بهرام. وارجو ان تتاح لي الفرصة في المستقبل لنشر هذه الفصول عن (ولاة الموصل والصليبيون) (الاراتقة والصليبيون) (عماد الدين زنكي والصليبيون) في كتاب واحد، لانها تضم مرحلة من اهم مراحل الصراع الاسلامي – الصليبي، وتشكل الصفحات الاولى من كتاب مقروء، خط صفحاته التالية يراع نور الدين محمود والناصر صلاح الدين، ومن بعدهما الظاهر بيبرس وال قلاوون. حيث تم القضاء على آخر ما تبقى للغزاة في مصر والشام من مواقع وحصون، بعد حملات صليبية متتابعة بلغت التسعة عددا !! **(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)** !!

الموصل :عماد الدين خليل

بالتراجم والتاريخ ، ويعود اليه الفضل في تأليف اعظم مصنف تاريخي بعد الطبري (انظر بحث ابن الاثير لعبد القادر طليمات). وهنالك رجال آخرون : ابن جني النحوي ، والطغرائي والسري الرفاء الشاعران المشهوران ، والخالديان الشاعران المؤرخان ، وابن حوقل ، والازدي ، وابو تمام الذي تولى الاشراف على بريد الموصل ردحا من الزمن وتوفي فيها ، وبهاء الدين بن شداد كاتب الناصر صلاح الدين ، وابن الدهان النحوي ، والهروي السائح ، وكمال الدين بن يونس الذي برع في الرياضيات والطبيعيات والموسيقى، وابن مودود الموصلي ، وابن دانيال اول من ابتكر لعبة خيال الظل المسرحية. وانظر كتب التراجم وبخاصة (جريدة العصر) للعماد الاصفهاني و(طبقات الاطباء) لابن ابي اصيبعة و(طبقات الحكماء) للقفطي و(ذيل الروضتين) لأبي شامة و(وفيات الاعيان) لابن خلكان و(ذيوله) المتعددة وغيرها ، للاطلاع على العدد الكبير من الاسماء التي لمعت في الموصل على مر العصور في مختلف ميادين العلوم والاداب والفنون. وانظر – كذلك – (فهرس مخطوطات الموصل) لداؤد الجلبي و(فهرس مخطوطات مكتبة الاوقاف العامة في الموصل) لسالم عبد الرزاق.

القسم الاول
الولاة والقوى الاسلامية
(الصراع الداخلي)

تمهيد :

مر العالم الاسلامي خلال الربع الاخير من القرن الخامس الهجري ومعظم القرن السادس بتطورات خطيرة في حياته السياسية والعسكرية والحضارية على حد سواء وتمتد جذور بعض هذه التطورات إلى بداية القرن الخامس وما قبله حيث فقدت الخلافة العباسية قدرتها العملية على السيطرة وحيث بدأ الضعف يصيب البويهيين انفسهم مما ساعد على تبلور مفهوم (الاستقلال الذاتي) للامارات الاسلامية التي انفصلت عن العاصمة المركزية، وغدا الصراع فيما بينها – في كثير من الاحيان – بعيدا عن تأثيرات العاصمة بخلافتها العباسية وسلطنتها البويهية كما ساعد من جهة اخرى على تقدم السلاجقة، بقواهم العسكرية المنظمة، من اواسط آسيا صوب الغرب، حيث اخذوا يسيطرون بالتدريج على مناطق السلطة البويهية. وإذ كانت هذه السلطة قد ارهقتها المنازعات الداخلية، وإذ كانت الخلافة العباسية قد ضعفت إلى حد كبير سياسيا وادبيا بحيث غدا أي عهد جديد يبشر بأفق أرحب لآمالها، وإذ كانت فتنة البساسيري تعبر عن إنتكاسة جديدة للخلافة العباسية حيث سعى هذا القائد إلى إعلان العراق منطقة نفوذ فاطمية، لذا نجد ان هذه العوامل جميعا تدفع الخلافة ومؤيديها من سكان بغداد إلى تقبل الحكم السلجوقي والترحيب به. ومن ثم كان سقوط البويهيين – الذين بلغوا درجة كبيرة من الضعف – أمراً يسيراً.

في هذه الفترة – اذن – كان مركز الثقل في الصراع – من الناحية المكانية – ينصب على بلاد فارس والعراق. ولكن بمرور الوقت، ونتيجة لتدخل عوامل جديدة تحول مركز الثقل هذا إلى منطقة اخرى غدت طوال العقود التالية تشكل منطقة حيوية في تيار الاحداث التاريخية، لا في العالم الاسلامي فحسب، بل في العالم المسيحي ايضاً، وقد امتدت تأثيرات تلك الاحداث إلى مختلف نواحي الحياة الانسانية، سياسية كانت ام حضارية، تلك هي منطقة الجزيرة – وبضمنها الموصل – والشام ومصر. وقد انعكس ذلك في عدد من المؤلفات لكبار مؤرخي الفترة تصف الاحداث والتعقيدات الجديدة في هذه المناطق. وقد ركز بعضها أضواءه على مدينة واحدة أو امارة محلية من هذه المدن والامارات التي اسهمت في تيار الاحداث – في المنطقة – اسهاما كبيرا.

وأول ما نلحظه – في هذه المرحلة الجديدة – هو الاصطدام الحتمي بين سلطة الفاطميين في الشام وبين السلطة السلجوقية الفاتحة. وفي الوقت الذي انهكت فيه المنازعات الداخلية، السلطة الفاطمية، بحيث غدا التضارب عنيفا بين الخلافة الفاطمية والوزارة نجد السلاجقة يندفعون بقوة – ودون انقسامات بادئ ذي بدء – ويفرضون سيطرتهم على معظم بلاد الشام في فترة محدودة من الزمن. وقد ابدى الفاطميون في بداية الامر مقاومة جادة للحفاظ على بلاد الشام، فأرسل بدر الجمالي امير جيوش مصر جيشا لحصار أتسز السلجوقي في دمشق واستنقاذها منه، فاستنجد اتسز بتاج الدولة تتش بن الب اسلان الذي اقطعه اخوه السلطان ملكشاه : بلاد الشام وما يستولي عليه، فترك تتش حصاره لحلب واسرع لانقاذ دمشق، وما ان اقترب منها حتى انسحب الجيش المصري كالمنهزم، وخرج اتسز لاستقبال تتش فانكر هذا عليه تأخره للقائه وألقى القبض عليه وقتله عام (٤٧٣هـ) ومن ثم دخل دمشق[٩] وكانت هذه البادرة الاولى للتمزق في القيادة السلجوقية، الا ان الفاطميين لم يتمكنوا من استغلالها اذ سرعان ما استولى تتش على حلب – القاعدة الثانية لبلاد الشام – وانطلق من هناك يفرض سيطرته على بلاد الشام واحدة تلو الاخرى. ولما وصله نبأ موت اخيه ملكشاه عام (٤٨٥هـ) لم يعقه ذلك عن اتمام توسعه، وغادر الشام باتجاه الجزيرة واستولى على عدد كبير من مدنها ومواقعها[١٠].

كان لهذا الصراع في المنطقة بين السلاجقة والفاطميين وجهتان احداهما دولية عامة تمثل طموح القيادة السلجوقية ليس للقضاء على الفاطميين فحسب بل للسيطرة على العالم الاسلامي كله. وقد عبر السلطان ملكشاه عن هذه الوجهة عندما سير اخاه تتش إلى الشام وقرر معه ان يعمل على فتح مصر وبلاد المغرب جميعا[١١] الا ان الانقسامات التي سرعان ما دبت في صفوف القيادة السلجوقية اثر وفاة ملكشاه عام (٤٨٥هـ) اعاقتها عن تحقيق هذا الهدف الواسع.

أما الوجهة الاخرى للصراع فهي وجهة محلية تمثل رد فعل سكان البلاد ضد امرائهم الموالين للفاطميين. ففي عام (٤٧٦هـ) – على سبيل المثال – عزم اهل حران بقيادة قاضيهم ابن جبلة على تسليم حران إلى جنق احد امراء التركمان واعلنوا العصيان ضد مسلم بن قريشي العقيلي امير الموصل لانه اسهم بنفسه في محاولة الفاطميين استرداد دمشق. وعندما سمع مسلم نبأ العصيان اسرع بالتوجه إلى حران ورماها بالمجانيق وتمكن من القضاء على العصيان وذبح

---

(٩) ابن الازرق الفارقي : تاريخ آمد وميافا رقين (القسم المنشور) ، ص٢٢١ ،المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جزء ١ قسم ١ ، ص٣٤-٣٥.

(١٠) الفارقي : ص٢٣٣-٢٣٧.

(١١) العماد الاصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص٦٦ ، الحسيني : الدولة السلجوقية ، ص٧٢ ، ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة ٥/١٢٥-١٢٨.

القاضي وولديه[١٢]. وتوضح لنا هذه الحادثة أيضاً بعداً اخر من ابعاد الصراع في شكله المحلي حيث نجد بعض الامراء المحليين من جهة اخرى يقومون بمحاولات للضغط على السلاجقة في الشام ومساندة الفاطميين، الا انهم لم يحققوا نجاحا يذكر[١٣].

كانت الدولة السلجوقية طيلة عهد السلطان ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ) تتمتع بالوحدة والخضوع للسلطة المركزية المتمثلة بهذا السلطان الذي كان على جانب كبير من القوة والاخلاص، والذي اعتمد في ادارة دولته على مساعدين اكفاء كنظام الملك الوزير وغيره. ولكن ما ان توفي ملكشاه حتى تعرضت الدولة السلجوقية للانقسام الذي استمر حتى سقوطها. وجاء النذير الاول لهذا الانقسام من الشام، اذ اعلن تتش الثورة في نفس العام (٤٨٥هـ) مطالبا بالسلطة لنفسه بدلاً من بركياروق ابن ملكشاه. وكانت قد بدرت من تتش بوادر في هذا الاتجاه منذ عهد ملكشاه. ففي عام (٤٨٤هـ) قام بمحاصرة طرابلس ونصب عليها المجانيق فاحتج عليه صاحبها جلال الملك بن عمار بأن معه منشور السلطان ملكشاه بإقراره على طرابلس، فلم يقبل تتش منه ذلك، الا ان احد قادة جيشه عصى عليه ولم يشأ الاستمرار في القتال، فقال له تتش : انت تبع لي فكيف تخالفني ؟ فأجابه القائد : انا تبع لك الا في عصيان السلطان. فغضب تتش وقفل عائدا إلى دمشق[١٤].

ومن ثم بدأ تتش تحركه بمجرد وفاة اخيه ملكشاه وانتقال السلطنة إلى ابنه بركياروق. وانفق الاموال لتحقيق هدفه، وتمكن في بداية الامر من جمع عدد كبير من امراء الشام والجزيرة تحت لوائه، وتقدم بهم صوب الجزيرة فاستولى على عدد كبير من حصونها ومواقعها، ثم سار إلى الموصل فتصدى له ابراهيم بن قريش العقيلي بثلاثين ألف من جنده في موقعة (المضيع) التي انتهت بهزيمة ابراهيم ومقتله، ومن ثم اقر تتش أخاه عليا العقيلي على الموصل بعد ان اعلن عن طاعته له[١٥].

ولما استتب الامر لتتش في الشام والجزيرة ارسل إلى الخليفة العباسي في بغداد يطلب منه تقليدا له بالسلطنة، فرد عليه الخليفة : " انما تصلح للخطبة إذا حصلت الدنيا بحكمك والخزائن التي بأصبهان – عاصمة السلاجقة – معك، وتكون صاحب الشرق وخراسان، ولم يبق من اولاد اخيك ملكشاه من يخالفك واما في هذا الحال فلا سبيل إلى ما التمسته "[١٦].

---

(١٢) ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة ١٣٠/٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٣٤٩/٣.

(١٣) المصدر السابق : النجوم الزاهرة ١١٥/٥.

(١٤) المصدر السابق ١٣٢/٥-١٣٣.

(١٥) الفارقي : تاريخ ، ص٢٣٧-٢٤٤ ، الاصفهاني : آل سلجوق ، ص٧٧-٧٩ ، ابن الجوزي: المنتظم ٧٦/٩-٧٧ ، الذهبي : العبر في خبر من غبر ٣١٠/٣-٣١١.

(١٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٣٧/٥-١٣٨.

سار تتش قدما إلى اذربيجان واستولى على بعض مواقعها، وآنذاك احس السلطان بركياروق بمدى الخطر الذي يحيق بمنصبه فبادر لوقف زحف عمه تتش، وما ان اقترب الجيشان حتى انسحب عدد من امراء تتش اعتقاداً منهم بعدم شرعية ثورته ضد السلطان بركياروق وقال قائلهم : "انما اطعنا هذا الرجل – يعني تتش – لننظر ما يكون من اولاد السلطان – ملكشاه – والآن، فقد قام ابنه هذا فينبغي ان نكون معه على تتش "، وقد ادى خذلان هؤلاء الامراء لتتش إلى ضعف جيشه فاضطر للانسحاب إلى الشام كي يعيد تنظيم قواته من جديد[١٧] وفي عام (٤٨٨هـ). التقى تتش والسلطان بركياروق ثانية بنواحي الري من بلاد فارس، فانهزم تتش وقتل واستقرت السلطنة السلجوقية لبركياروق. وكان لتتش ولدان هما رضوان ودقاق، فتسلم دقاق دمشق واستولى رضوان على حلب[١٨]. ومن ثم خرجت هاتان المدينتان عن السيطرة المباشرة للسلطان السلجوقي وأصبحتا تتمتعان بالحكم الذاتي من قبل ابناء تتش في بداية الامر ثم اتابكتهم فيما بعد، شأنهما شأن عدد كبير من المدن والحصون المنتشرة في الشام والجزيرة. اما الموصل فانها استمرت تحكم مباشرة من قبل السلاطين السلاجقة الذين كانوا ينيبون عنهم في حكمها ولاة كانوا يتلقون اوامرهم من السلطان (وهو الموضوع الذي سينصب عليه هذا البحث).

كانت ثورة تتش فاتحة عهد طويل قاس من الانشقاقات والحروب التي لا تنتهي بين السلاجقة. وقد حاول بعض الخلفاء العباسيين استغلالها لتثبيت مركزهم وتقوية سلطتهم، كألمسترشد والراشد اللذين عرضهما طموحهما للهلاك. وكان للامراء المحليين دور كبير في تقرير مصير معظم هذه الحروب بوقوفهم إلى جانب هذا السلطان أو ذاك. وبينما كانت الموصل تؤكد خلال هذا الصراع علاقتها المباشرة بالسلاطين عن طريق المشاركة فيه، كانت بلاد الجزيرة والشام، وبخاصة دمشق وحلب، قد ابتعدتا عن هذا الصراع وبلورتا استقلالهما الذاتي.

في هذه الفترة ظهرت على المسرح قوة جديدة كان لها اثرها الكبير في المنطقة تلك هي الصليبيون الذين جاءوا بحملتهم الاولى في اواخر القرن الخامس، وظهروا على سواحل الشام في مطلع العقد الاخير من ذلك القرن. كان يحكم العالم الاسلامي آنذاك أربع قوى : الفاطميون في مصر، والسلاجقة في بلاد فارس والعراق، والخلافة العباسية في بغداد، ثم الامراء المحليون في الجزيرة والشام. ولما كانت الخلافة الفاطمية تمر بمرحلة التدهور والانهيار بسبب المنازعات الداخلية وضربات السلاجقة، لذا لم تستطع ان تقوم بدور يذكر في صد القوى الصليبية عن بلاد الشام، بل على العكس حاولت الافادة من هذه القوة الجديدة من اجل استعادة ما افقده السلاجقة

---

(١٧) الذهبي : العبر ٣/٣١٠-٣١١.

(١٨) المصدر السابق ٣/٣١٨-٣١٩ ، الاصفهاني : آل سلجوق ، ص٧٧-٧٩ ، ابن الجوزي : المنتظم ٩/٨٥.

إياها في آسيا ولا سيما فلسطين. لذا سعى الفاطميون لعقد تحالف مع الصليبيين لتحقيق اهدافهم المشتركة، فأرسلوا سفارة إلى معسكر الصليبيين عند انطاكية عام (٤٩٢هـ) عرضت عليهم اقتراحا يتضمن العمل على اقتسام أملاك السلاجقة في الشام فيكون للصليبيين إنطاكية وشمالي الشام، ويكون للفاطميين فلسطين. وقد استقبل الوفد الفاطمي بحفاوة بالغة من قبل الصليبيين، وأرسل هؤلاء بدورهم وفدا إلى مصر، ولكن لم يتم أي اتفاق رسمي بين الطرفين[١٩] ، ربما لأن القدس كانت هدف الطرفين الرئيسي. وفيما عدا المحاولات الدفاعية التي قام بها الفاطميون في السنوات الاولى من الهجوم الصليبي، لم تصدر عنهم خطة طويلة المدى للتصدي لهذا الخطر.

أما السلاجقة فإن صراعهم على السلطة بدّد قواهم في هذا الاتجاه[٢٠]! ولم يستطع أي منهم ان يقوم بعمل خطير ضد الصليبيين سوى بذل الوعود من جهة، وتوجيه الامراء المحليين وبعض قادة السلاجقة لقتال الصليبيين بين الحين والحين من جهة اخرى. فعندما كثر الاستنفار على الصليبيين عام (٤٩١هـ) وكثرت الشكاوى منهم بكل مكان، اصدر السلطان بركياروق اوامره إلى عدد من الامراء يأمرهم بالخروج مع وزيره ابن جهير لقتال الصليبيين. وقد اجتمع بعض هؤلاء الامراء في بغداد، ولكن لم يتخذ أي اجراء جاد بتوجيههم للقتال ((فانفسخت هذه العزيمة)) كما يقول ابن الجوزي[٢١] وفي العام التالي، وبعد ان استولى الصليبيون على بيت المقدس وأجروا فيه مجزرتهم الرهيبة المعروفة، انهال المستنفرون من بلاد الشام على بغداد مستنجدين فندب الخليفة احد موظفيه للذهاب إلى اصفهان واطلاع السلطان على هذه المصيبة "فوقع التقاعد"[٢٢] ثم نجد بعد ذلك أمثلة اخرى على رغبة أكيدة من سلاطين السلاجقة للتصدي بأنفسهم للخطر الصليبي الا ان المشاكل الداخلية التي كانت تجابههم باستمرار كانت تحول بينهم وبين هذا العمل. ففي عام (٥٠٣) مثلاً عزم السلطان محمد على غزو الصليبيين وكتب إلى امراء الاطراف يخبرهم عن عزمه واستعداده للجهاد، وأرسل إلى طغتكين أمير دمشق يطلب منه تجهيز قواته ريثما يصل السلطان إلى دمشق، الا ان موانع وعوائق عرضت للسلطان عاقته عن تنفيذ ذلك[٢٣]

---

(١٩) Grouss et: A Histoire des Croisades 1/83-85, Runciman: A History of the Crusades , 1/230

ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٣٥ ، العريني : الحروب الصليبية ١/٢٤٣-٢٤٤ ، حبشي: اعمال الفرنجة ، ص٥٩.

(٢٠) انظر ابن الساعي : المختصر ، ص٩٣.

(٢١) المنتظم ٩/١٠٥-١٠٨ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٥/١٥٠-١٥٢.

(٢٢) المصدران السابقان ، نفس الصفحات.

(٢٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨/٣١.

وفي عام (٥٠٧) جهز السلطان محمد ولده الملك مسعود للتوجه إلى الشام لقتال الصليبيين، وكتب بذلك إلى امراء الاطراف "ثم عرض أمر منعه من ذلك"[٢٤].

أما الخلافة العباسية فلم تكن تملك من القوة المادية ما يتيح لها الاشتراك الفعلي في قتال الصليبيين والدفاع عن بلاد الشام، وما كان لها من قوة معنوية استغلتها في الحث على الجهاد والاستنجاد بالسلاطين كلما جاء المستنفرون من بلاد الشام فيجيبهم السلطان بالوعود التي اطلعنا على جانب منها.

هذا، بينما راح الصليبيون يتوغلون شرقا وجنوبا ويستولون على المواقع والمدن والحصون واحدة تلو الاخرى، وتمكنوا في اقل من ثلاثة عقود، ان يستولوا على معظم بلاد الشام واهم قلاعها ومعاقلها، مستغلين ضعف الخلافتين العباسية والفاطمية وانشغال السلاجقة بالصراع الداخلي. ولم يبق لتحمل عبء الجهاد اذن سوى امراء الولايات المحلية في الجزيرة والشام جنبا إلى جنب مع ولاة الموصل. وقد قام هؤلاء جميعا بدور جاد لصد الخطر الصليبي، حيث اتاحت هذه الظروف العامة، الصعبة، المجال واسعا لظهور شخصيات قوية في عالم الجهاد، كما ادت إلى تبلور الاستقلال الذاتي لبعض الامارات، والى ظهور امارات جديدة على مسرح الجزيرة والشام.

الموصل بين عهدين :

إن العصر الذي سبق الحكم الاتابكي[٢٥] للموصل، والذي يمكن تسميته بعهد ولاة السلاجقة كان يتسم بخصائص عامة جعلته يختلف إلى حد ما عن الحكم الاتابكي الذي انشأه عماد الدين زنكي في الموصل عام (٥٢١هـ) – ويبدو من الناحية الظاهرية – ان كلا العهدين متمم للآخر وأن العهد الثاني انما هو استمرار لسابقه من حيث طبيعة العلاقة بالسلطان السلجوقي الحاكم، حيث كان الامراء في كلا العهدين يمارسون مهامهم الادارية كنواب عن السلاطين السلاجقة، ومن حيث الوقوف – قوة وضعفا – بوجه الخطر الصليبي الزاحف. ولكننا إذا ما تفحصنا بدقة طبيعة الحكم في كلا العهدين فسنجد بينهما تفاوتا واضحا، سواء في علاقاتهما الخارجية ام في سياساتهما الداخلية.

---

(٢٤) المصدر السابق ٤٦/٨.

(٢٥) رغم ان عددا من ولاة السلاجقة قبل زنكي كانوا أتابكة أيضاً ، حيث كلفوا بالاشراف على ابناء السلاطين الذين أديرت البلاد باسمهم ، الا ان معظم المؤرخين القدماء والمحدثين خصوا بلقب الاتابكة زنكي وأبناءه من بعده ، وهو العهد الذي يطلق عليه اسم (العهد الزنكي).

وأول ما يلاحظ في هذا المجال أن الولاة كانوا على اتصال مباشر بالسلطان السلجوقي يوجههم كيف يشاء، ويعزلهم متى اراد، حتى لو اضطره الامر إلى استخدام القوة ضد من تحدثه نفسه بالسعي إلى الاستقلال بمناطق ولايته، ورفض الارتباط المباشر بالسلطان. اما في العهد الاتابكي فقد غدا امراء الموصل على درجة كبيرة من الاستقلال والتمتع بالسلطة الفعلية، ولم يبق للسلطان السلجوقي سوى السلطة الرسمية (الشكلية). وأبرز مثل على ذلك هو استقرار النظام الوراثي في الحكم في اعقاب عماد الدين زنكي بحيث لم تعد للسلطان أية مشيئة في عزل أحدهم، أو إصدار أوامره لوالٍ جديد بالتوجه إلى الموصل واستلام إدارتها، كما كان الحال في السابق.

وإذ كان الولاة معرضين دائماً – نتيجة ارتباطهم المباشر بالسلطان – للإقالة والعزل من جهة، ولتلقي الاوامر بالتوجه إلى الشام لقتال الصليبيين الذين كانوا يزحفون بسرعة صوب الشرق – من جهة اخرى – فقد غدت طبيعة إدارتهم وسياستهم الداخلية قلقة غير مستقرة، بحيث ان زنكي لدى استلامه مهام الحكم في الموصل لم يجد ثمة جهازا واضحاً للإدارتين المحلية والعامة في مختلف المجالات، فقام هو بانشاء جهاز اداري متكامل. كما انه وجد تدهورا في النشاط العمراني، وخرابا شمل مناطق واسعة من الموصل، حتى ان الناس لم يكونوا يستطيعون الذهاب إلى الجامع – فيما عدا يوم الجمعة – بسبب بعده عن المناطق السكنية[٢٦].

وهذا يشير إلى عدم اهتمام معظم ولاة السلاجقة باعادة اعمار المناطق التي استولى الخراب عليها، رغم انتشارها في قلب المدينة، وظل الامر كذلك حتى مجيء زنكي وقيامه باصلاحات مهمة في هذا المجال.

أما الناحية الاقتصادية، حيث تعد الزراعة الاساس الرئيسي لاقتصاديات المنطقة بناء على موقعها وطبيعة مناخها ووفرة مياهها، فقد اصيبت هي الاخرى بالتدهور في هذا العهد، وغدت اقل البلاد فاكهة – كما يشير ابن الاثير – قل عنبها حتى كاد ينعدم، وتقلص انتاج الرمان والكمثرى والتفاح إلى حد كبير[٢٧]. ولم تتطرق المصادر إلى وضعية زراعة الحبوب ولا إلى بقية الفعاليات الاقتصادية الاخرى كالتجارة والصناعات المحلية. واذا ما عرفنا مدى ارتباط النشاط الاقتصادي بالحركة العمرانية بدا واضحاً تأخر الموصل في هذا المضمار كتأخرها في العمران، خاصة بعد افتقاد الامن في المنطقة إلى حد غدا معه أي من سكان المدينة لا يستطيع الابتعاد كثيرا عنها الا ومعه من يحميه[٢٨]. ولعب العيارون وقطاع الطرق – الذين تعدى نشاطهم مدينة بغداد – دوراً كبيراً في افتقاد الامن وتدهور التجارة، حيث قاموا – في هذه

---

(٢٦) ابن الاثير : الباهر ، ص٧٧ ، الكامل ٤٥/١١ ، أبو شامة : الروضتين ١١٠/١.

(٢٧) ابن الاثير : الباهر ، ص٧٨ ، الكامل ٤٥/١١.

(٢٨) الكامل ٤٥/١١.

الفترة – بأعمال التمرد والاستيلاء على السفن التجارية القادمة من الموصل صوب بغداد وبالعكس[٢٩].

فاذا ما اضيف إلى ذلك ظلم بعض ولاة السلاجقة الذين تسلموا حكم الموصل بأساليب العنف، واتاحة الفرصة للاقوياء بظلم الضعفاء، وعدم استقرار أي والٍ مدة كافية من الزمن يستطيع – معها – ان يتفهم مشاكل المدينة وما يحيط بها، واحتياجات سكانها، من اجل ان يقوم باحداث اصلاحات جدية – كما فعل زنكي فيما بعد – فضلاً عن الخطر الصليبي الذي كان يتهدد جميع المواقع غربي الموصل، وانهماك الولاة بإيقاف هذا الخطر، والقلق الذي سيطر على السكان[٣٠] ، استطعنا ان ندرك مدى تدهور الحالة الاقتصادية، حتى لقد ارتفعت الاسعار في بعض السنين، في المنطقة، وهلك كثير من ضعاف الناس جوعا[٣١].

ومما زاد في تقلص النشاط التجاري في المنطقة ما كان التجار والمسافرون يتعرضون له من تهديد الصليبيين وهجماتهم على القوافل التجارية، بحيث لم يكن احد هؤلاء يبحث عن طريق غير مسلوك هربا من الصليبيين حتى يجد نفسه معرضاً للخطر من قبل البدو المنتشرين في المنطقة. ولم يستطع حكام المسلمين الحد من هذه المخاطر لانشغالهم بالمنازعات والحروب فيما بينهم.

وكانت هناك ظاهرة (التحكم) التي اتسمت بها هذه المرحلة التاريخية، اكثر من أي وقت مضى، والتي نجمت عن رغبة كل امير في الاستقلال الذاتي، واتخاذ الالقاب المختلفة. وكان استفحال هذه الظاهرة يقف حائلاً دون توسع أية امارة وبلوغها درجة من التمكن العسكري والاقتصادي. وقد اثر هذا بطبيعة الحال على موارد الموصل واقتصادياتها. إذ اقتطعت معظم المواقع والقلاع التابعة للموصل من قبل الامراء الطموحين، وما تبقى مما يعود للسلطنة السلجوقية عانى من ظاهرة اخرى هي الاقطاع، حيث اقطع معظمه، حتى ان السلطان محمود السلجوقي نفسه لم يكن له عمال وبطل ديوانه، اذ لم يبق للديوان من عمل سوى مصادرة أموال ذوي اليسار[٣٢].

وأزاء ذلك تفنن الامراء المحليون في فرض الضرائب الكثيرة على الاهالي، وكانت (المكوس) اهم هذه الضرائب وكانت تعتبر – آنذاك – علامة الظلم، حتى ان السلطان محمد – لدى وصوله بغداد عام ٥٠١هـ – قام بمحاولة للتقرب إلى رعيته فأمر برفع المكوس

---

(٢٩) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، حـ٩ ، ص٢١٦.

(٣٠) الكامل ٤٥/١١.

(٣١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢١٢.

(٣٢) عماد الدين الاصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق (اختصره البنداري) ، ص١٢٣.

وابطال رسومها عن التجار والمسافرين في جميع بلاده وحظر على عماله وموظفيه تناول اليسير منها، ولكن ما ان عاد إلى اصفهان حتى طمع كبار الامراء والموظفين بالتجار، واستأنفوا فرض المكوس عليهم مخالفين بذلك اوامر السلطان السلجوقي لولا ان هذا اكد اوامره من جديد في ابطال تلك الضريبة وحذر من مخالفته في سائر البلاد[٣٣].

وكانت الموصل والبلاد المجاورة تعاني من هذه الضريبة وغيرها كالاعشار والرسوم والمؤن بدليل انها استمرت في عهد زنكي، ولم ترفع نهائيا الا في عهد ابنه نور الدين محمود عام (٥٦٧هـ) ، وكانت هذه الضريبة قد بلغت في مدينة الموصل مقداراً كبيرا[٣٤] هذا فضلاً عن الضرائب الثابتة كالجزية والخراج والتي كانت – في كثير من الاحيان – تذهب لصالح الولاة[٣٥].

وقد أثرت هذه العوامل جميعا وادت إلى وقف تزايد سكان الموصل وعدم اتساع دائرتهم السكنية، وقد استمرت الامور تجري على هذا المنوال طيلة عهد الولاة، ولم يحدث تبدل واضح الا بعد مجيء زنكي حيث عمر البلاد فامتلأت اهلا وسكانا[٣٦] ، وبدأت الموصل تشهد هجرة اليها من المناطق الاخرى[٣٧] مما ادى إلى تحول المدينة، قليلة السكان، إلى عاصمة لأقوى امارة شهدها الربع الثاني من القرن السادس الهجري.

ولم تتمتع الموصل في عهد الولاة باستقلال عسكري يذكر، بل على العكس كانت في هذه الفترة قاعدة للتحركات العسكرية بأمر السلاجقة سواء للاسهام في الصراع بين السلاطين من اجل الحكم أو لقتال الصليبيين ووقف خطرهم الزاحف. وقد حققت الموصل في كلتا الحالتين نتائج هامة.

ثم تأتي الناحية السياسية، فاذا بالموصل، في هذا العهد – تخطب رسميا للسلاجقة، تارة للسلطان السلجوقي في اصفهان أو بغداد وتارة اخرى لسلطان المناطق الشمالية والشرقية من الدولة السلجوقية، حسب الاتفاق بين السلاطين المتنازعين[٣٨] ولم يقف الامر عند حد العلاقة الرسمية بل تعداه إلى الناحية الفعلية، حيث كانت الموصل تخضع تارة لسلطان فارس والعراق، وتارة اخرى تغدو ضمن اقطاعات الملك السلجوقي الحاكم في الجهات الشمالية من بلاد فارس

---

(٣٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص١٦٢ ، ابو الفدا ، المختصر ١٤٩/٤.

(٣٤) انظر ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ٢٧٥/١-٢٧٦ (للاطلاع على اصلاحات نور الدين زنكي المالية). وانظر أيضاً ابن الاثير : الباهر ، ص١٥٤ ، الكامل ١٤٧/١١.

(٣٥) ابن الجوزي : المنتظم ١١٢/٩.

(٣٦) ابن الاثير : الكامل ٤٥/١١.

(٣٧) ابن الاثير : الباهر ، ص٧٧.

(٣٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨/٨ ، الحسيني : اخبار الدولة السلجوقية ، ص٧٨.

والعراق والشام. ففي الصراع الذي نشب بين السلطان محمود وبين عمه سنجر – سلطان خرسان وما وراء النهر – والذي انتهى بانهزام محمود وتنازله لعمه، رأي هذا ان يكرم ابن اخيه فأقطعه من البلاد الجهات الشمالية من بلاد فارس والعراق والشام، وبضمنها منطقة الموصل والجزيرة، واصدر سنجر منشوراً بذلك(٣٩).

أما علاقة ولاة الموصل بالخلافة العباسية، فلم تكن تقوم الا على رابطتين احداهما رمزية تجعل من الخليفة الرئيس الاعلى للمسلمين، والاخرى روحية تضفي على مركز الخليفة صفة شرعية، وتحتم على الولاة الخطبة له على المنابر ايام الجمعة وفي المناسبات العامة، وفيما عدا ذلك لم تكن للخليفة العباسي أية سلطة فعلية إزاء الولاة.

قوام الدولة ابو سعيد كربوقا ٤٨٩–٤٩٥هـ :

اشتهر ولاة الموصل ولمعت اسماء معظمهم في هذا العهد، ليس بسبب جهادهم ضد الصليبيين فحسب، بل لانهم لعبوا دوراً هاما في الصراع المستمر بين سلاطين وملوك السلاجقة، كما قام بعض هؤلاء الولاة بنشاط واسع في المنطقة وانشاء علاقات مختلفة مع اصحاب الامارات الكثيرة المنتشرة في هذه الجهات. والوالي السلجوقي الاول الذي شهدته الموصل بعد سقوط اخر امير عقيلي هو قوام الدولة ابو سعيد كربوقا أو (كربوغا)، حيث ارسل السلطان بركياروق عام (٤٨٩هـ) رسوله إلى رضوان بن تتش السلجوقي امير حلب باطلاق سراح كربوقا واخيه التونتاش من السجن. وكان هذان محبوسين منذ ما يقرب من سنة بسبب موقفهما من الصراع بين تتش حاكم الشام السلجوقي وبين السلطان بركياروق الذي اراد تتش انتزاع السلطنة منه. فلما قتل تتش واستولى ابنه رضوان على حلب ابقى كربوقا واخاه في السجن لحين ورود امر بركياروق باطلاق سراحهما. وما ان غادرا السجن حتى استطاعا – كعادة قادة التركمان في تلك الفترة – ان يجمعا حولهما الكثير من الجند الذين لم يكن لهم من عمل انذاك، وتقدما الى حران واستوليا عليها، وعند ذلك كاتبهما محمد بن شرف الدولة العقيلي من نصيبين يستنجد بها على اخيه علي بن شرف الدولة الذي كان تتش قد عينه على الموصل اثر استيلائه عليها. فتوجه كربوقا واخوه الى نصيبين حيث استقبلهما محمد عند اسوارها واستحلفهما لنفسه. ولكن كربوقا سرعان ما نقض الحلف وقبض على حليفه وتقدم الى نصيبين مؤملا الاستيلاء عليها عن طريق التهديد بأميرها الاسير. ولكن نصيبين امتنعت عليه، فحاصرها اربعين يوما وتمكن اخيرا من الاستيلاء عليها. ثم اتجه – بعد ذلك – الى الموصل وضرب حولها الحصار الا انه لم يحقق أي نتيجة فتركها باتجاه بلد جنوبي الموصل حيث قتل محمد بن شرف الدولة ملقيا جثته في نهر دجلة ثم عاد الى

---

(٣٩) أبو شامة ، الروضتين ٧١/١.

الموصل ثانية ليحاصرها من جديد. وسرعان ما استنجد علي بن شرف الدولة بالامير شمس الدولة جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر شمالي الموصل فاستجاب هذا لنجدته وتقدم لقتال قوات كربوقا واخيه الا انه انهزم عائدا الى جزيرة ابن عمر. ولم يلبث كربوقا ان استماله واتخذه حليفا له ضد الموصل(٤٠).

اشتد الحصار على الموصل، وانعدمت الاقوات ومواد الوقود مما اضطر الاهالي الى ايقاد القير وحب القطن. فلما ضاق الامر بصاحبها علّي تركها وتسلل خارجا صوب الحلة ملتجأ بالامير صدقة بن مزيد هناك. ومن ثم استولى كربوقا على الموصل بعد حصار دام تسعة اشهر. وعم الخوف اهالي المدينة لانتشار شائعات مفادها ان اخاه التونتاش يسعى لنهبهم وان كربوقا يقف حائلا دون ذلك مما اضطر التونتاش الى القاء القبض على اعيان البلد ومطالبتهم بالودائع والاموال التي جمعوها خلال الحصار واستطال التونتاش على اخيه فرأى هذا نفسه مضطراً الى اصدار امره بقتله، فقتل التونتاش في اليوم الثالث من الاستيلاء على المدينة وتخلص السكان من تجبره، ومن ثم احسن كربوقا السيرة في اهالي الموصل. ولم يكتف بما حققه من نصر بل سعى لتحقيق انتصارات اخرى فتوجه صوب الرحبة للاستيلاء عليها فصمدت له، الا انه تمكن اخيرا من الاستيلاء عليها ونهبها وتعيين نائب له فيها، وعاد الى الموصل(٤١) (٤١). وتمكن بعد فترة قصيرة من الاستيلاء على ماردين – اهم موقع في ديار بكر شمالي الجزيرة – فامتدت اطراف امارته وعظم شأنه خاصة وانه كان ينوب عن السلطان السلجوقي بركياروق في المنطقة ويعلن له الطاعة(٤٢).

لعب كربوقا دورا مهما في تربية الامير عماد الدين زنكي والعناية به، اذ كان كربوقا من مماليك ابي زنكي قسيم الدولة آق سنقر حاكم حلب (٤٧٩–٤٧٨هـ). فلم ينس فضله عليه، فاستدعى مماليك آق سنقر وطلب منهم احضار زنكي بين يديه قائلا لهم : هو ابن اخي وانا اولى الناس بتربيته. فاحضروه عنده لكي يشرف بنفسه على تربيته، فضلا عن انه استعان في حروبه بمماليك ابيه آق سنقر الذين كانوا يمتازون بالشجاعة والاقدام، واقطعهم الاقطاعات

---

(٤٠) ابن الاثير : الكامل ٩٦/١٠ ، الباهر ، ص١٥، أبو شامة : الروضتين ٦٧/١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ٢٨/١ ، ابو الفدا : المختصر ١٢٢/٤–١٢٣ ، الذهبي : العبر في خبر من غبر ٣٢٤/٣، ابن كثير : البداية والنهاية ١٩٥/١٢ ، ابن خلدون : تاريخ ١٧/٥.

(٤١) انظر مصادر الهامش السابق.

(٤٢) ابن الاثير : الباهر ، ص١٥.

الواسعة[٤٣]. وقد كان لهؤلاء المماليك دور مهم في المعارك التي خاضها كربوقا ضد بعض المواقع في ديار بكر[٤٤]

اسهم كربوقا على نطاق واسع في الصراع الذي كان يدور باستمرار بين سلاطين السلاجقة وملوكهم من أجل الاستئثار بالحكم أو الحصول على مزيد من المواقع. ولم يتخذ كربوقا موقفا واحدا ازاء هذا الصراع وانما كان ينتقل من معسكر إلى اخر باحثا عن السلطان المنتصر لينضم اليه ويعمل تحت لوائه، ولعل مما يبرر موقفه المتارجح هذا كونه تابعا للسلاجقة بأتمر بأمرهم، فكان لا بدل له من اطاعة السلطان الاقوى لكيلا ينال عقاب المتمردين.

وقد شهد عام (٤٩٢هـ) احدى جولات الصراع بين السلطانين محمد، الذي كان يحكم الجهات الشمالية السلجوقية، وبركياروق سلطان فارس والعراق، وانضم كربوقا إلى محمد فيمن انضم اليه من امراء الاطراف، وشعر محمد بمدى قوته فارسل إلى بغداد يطلب ان يخطب له فيها، فتم له ما اراد وخطب له على منابرها في السابع عشر من ذي الحجة عام (٤٩٢هـ)[٤٥]. وفي العام التالي اخذ بركياروق يتراجع في بلاد فارس ازاء تقدم اخيه محمد، وعندما اجتمع حوله عدد من الامراء والاجناد سعى للقاء اخيه، ودارت المعركة بينهما في الثالث من جمادي الاخرة عام (٤٩٤)، حيث انتصر بركياروق وانهزم محمد بعد ان تفرق عنه معظم عسكره. ولما فرغ بركياروق من هذه المعركة توجه إلى الري حيث اجتمع اليه هناك كربوقا وعدد من الامراء. وحدث ان اعلن الملك السلجوقي مودود بن اسماعيل تمرده في اذربيجان فوجه اليه بركياروق جيشا قوامه عشرة آلاف فارس عهد بقيادته إلى كربوقا. وقد تقدم هذا صوب اذربيجان وحقق مهمته بنجاح حيث تمكن من الاستيلاء على معظمها، الا ان مرضه حال دون انجاز هذه المهمة فاوصى بولاية الموصل لاحد امرائه المدعو (سنقرجه) وامر الاتراك بطاعته. وما لبث كربوقا ان توفي في ذي القعدة عام (٤٩٥هـ) فتوجه سنقرجه على رأس قواته صوب الموصل وتسلم مهام الحكم فيها[٤٦]

كان اعيان الموصل قد كاتبوا موسى التركماني، نائب كربوقا في حصن كيفا، وطلبوا منه ان يبادر اليهم ليسلموا اليه البلد، فاسرع هذا بالتوجه نحو الموصل وعندما سمع (سنقرجه) بوصوله خرج مع اهالي البلد لاستقباله ظنا منه انه جاء ليعلن له الطاعة ويعمل تحت زعامته. وعند اللقاح جرى بين القائدين حوار تتضح من خلاله طبيعة علاقة الوالي بالسلطان السلجوقي. اذ بين سنقرجه لموسى التركماني : ان قصده من كل ما كان لكربوقا المنصب فحسب، اما

---

(٤٣) المصدر نفسه ، ص١٥-١٦.

(٤٤) المصدر السابق : نفس الصفحة ، الكامل ١٤٦/١٠ ، أبو شامة : الروضتين ٧/١.

(٤٥) أبو الفدا : المختصر ١٢٧/٤.

(٤٦) ابن الاثير : الكامل ١١٢/١٠-١١٣،١٢٧-١٢٨، الباهر ، ص١٦، ابو الفدا ، المختصر ١٣١/٤-١٣٢، ابن الوردي : تاريخ ١٣/٢-١٤، ابن خلدون : تاريخ ٢٢/٥، ٢٩-٣٠.

الاموال والحكم الفعلي " فلك وبحكمك"، فكان جواب موسى انه لا اختيار لهما في هذه المسائل انما ذلك للسلطان يعين من يريد ويولي من يختار !! واغلب الظن ان موسى اراد بهذه الكلمات تعزيز مركزه ضد سنقرجه باضفاء طابع الطاعة للسلاجقة على موقفه. ولم يطل الحوار بينهما بعد ذلك، اذ حاول سنقرجه قتل موسى ولكن المحاولة انقلبت عليه فقتل وتوجه موسى الى الموصل واحسن الى اصحاب سنقرجه ولم يلحق بهم أي عقاب استمالة لهم وخوفا من استفزاز السلطان بركياروق[٤٧].

شمس الدولة جكرمش ٤٩٥-٥٠٠هـ :

لما سمع جكرمش - صاحب جزيرة ابن عمر - خبر دخول موسى الموصل تحرك للاستيلاء على بعض المواقع في المنطقة، مستغلا انشغال موسى وخلو الجو، وتمكن من الاستيلاء على نصبين. الا ان موسى لم يترك له المجال ليفعل مايشاء، واسرع في مهاجمة جزيرة ابن عمر كي يضطره الى العودة للدفاع عنها وملاقاة منافسه، الا ان موسى ما ان اقترب من جكرمش حتى غدر به عسكره وانضم الى جكر مش فاضطر موسى للعودة الى الموصل فلحقه جكرمش اليها وحاصرها مدة طويلة، فاستعان موسى بالامير التركماني سقمان بن ارتق وطلب نجدته مقابل التنازل له عن حصن كيفا الشديد التحصين، ومنحه عشرة آلاف دينار. فاستجاب سقمان للعرض وتقدم صوب الموصل لقتال جكرمش، فاضطر هذا الى فك الحصار والابتعاد عن المدينة. وخرج موسى لاستقبال سقمان بن ارتق، الا ان بعض غلمانه اغتالوه في احدى القرى القريبة من الموصل، فعاد اصحابه الى الموصل متفرقين، ورجع سقمان الى حصن كيفا فاستولى عليه. اما جكرمش فقد اتيحت له الفرصة ثانية فتوجه نحو الموصل، وحاصرها اياما، ثم دخلها سلماً واحسن السيرة فيها، وقتل اولئك الذين اغتالوا موسى، استرضاءاً للاهالي، في اغلب الظن، نظراً لما كان يتمتع به موسى من تأييد هؤلاء. ولم يشأ جكرمش ان يضيع مزيدا من الوقت في الموصل، بل اسرع في الاستيلاء على مناطق واسعة من الجزيرة والجهات الجبلية، فأطاعة العرب والاكراد[٤٨]

وبهذه النتيجة تنتهي مرحلة مهمة من الصراع على السلطة في الموصل. اتاحها للامراء المتنافسين انشغال السلاجقة بما هو اهم من مشاكل الامارات والولايات، أي بما يتعلق بالعروش

---

(٤٧) ابن الاثير : الكامل ١٠/١١٢-١١٣،١٢٧-١٢٨، الباهر ، ص١٦، أبو الفدا : المختصر ٤/١٣١-١٣٢، ابن خلدون : تاريخ ٥/٢٩-٣٠،٣١١.

(٤٨) ابن الاثير : الكامل ١٠/١١٢-١١٣،١٢٧-١٢٨، الباهر ، ص١٦، أبو الفدا : المختصر ٤/١٣١-١٣٢، ابن خلدون : تاريخ ٥/٢٩-٣٠،٢١١.

نفسها التي غدت عرضة للسقوط بين الحين والاخر، كلما انتقض ملك او تحرك سلطان للقتال، ومن ثم اهملت قضية الموصل دونما تدخل جاد من قبل السلاجقة، الامر الذي اتاح لجكرمش اخيراً الاستئثار بالموصل والتمتع باستقلال ذاتي استمر عدة سنوات.

ولكن ما ان توصل كل من السلطانين بركياروق ومحمد عام (٤٩٧هـ) الى اتفاق على تسويات معينة اهمها ان يكون لمحمد الجهات الشمالية من الدولة السلجوقية، حتى اسرع هذا بالتوجه الى مراغة في شمال بلاد فارس واجتازها مسرعا صوب (اربل) قاصداً الموصل لقتال جكرمش واستعادة امارته وضمها فعليا الى القسم التابع للسلطان محمد من ممتلكات الدولة السلجوقية[٤٩]

عندما سمع جكرمش باقتراب الخطر اتخذ الاحتياطات الكافية فجدد سور الموصل، ورمم ما احتاج منه الى ترميم، واصدر اوامره الى فلاحي سواد الموصل واهاليه بدخول البلد، وهدد بنهب اموال من لم ينفذ هذه الاوامر وسرعان ما بدأ السلطان محمد حصاره للموصل، وارسل الى جكرمش يعلمه بالصلح الذي تم بينه وبين اخيه بركياروق وان من بنود هذاالصلح ان تكون الموصل وكافة بلاد الجزيرة للسلطان محمد، وعرض عليه وثائق بركياروق الخاصة بهذا الصلح واوامره الى جكرمش بتسليم الموصل لاخيه محمد. وقال له : ان اعلنت الطاعة فسوف لا آخذ المدينة منك بل اقرها بيدك وتكون الخطبة لي. فرد جكرمش : ان كتب السلطان بركياروق وردت الى بعد الصلح تأمرني ان لا أسلم البلد الى غيره [٥٠]!!

لقد حاول جكرمش – فيما سبق – ان يستغل التأزم الحاصل بين السلاطين ويحقق لنفسه استقلالا ذاتيا، وعندما هدد باحدى السلطتين السلجوقيتين رأى ان تكون طاعته للسلطان البعيد كيلا تكون سلطته الفعلية نافذة، وهذا ما اراده بجوابه للسلطان محمد. فلما رأى هذا امتناع جكرمش عن طاعته اعلن القتال وزحف الى البلد يتقدم جيشه النقابون والدبابات، وهما سلاحان اساسيان لحرب الاسوار، ولكن هذا الهجوم العنيف سرعان ما جوبه بدفاع شديد من اهالي الموصل وجندها واستماتة في حفظ مدينتهم. فجكرمش قد احسن السيرة فيهم فأحبوه ورأوا فيه الامير القائد الذي يجب ان يدافعوا عنه. واصدر جكرمش امراً بفتح بعض الابواب السرية في السور، فكان يخرج منها بين الحين والاخر مجموعات من الرجال يشنون حرب العصابات على معسكرات السلطان فيقتلون ويغنمون ثم يعودون. بينما تجمع بعض اصحاب جكرمش في

---

(٤٩) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٤٣.

(٥٠) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

تل يعفر – غربي الموصل – وقاموا من جهتهم بشن غاراتهم على معسكرات السلطان، واحباط وصول الميرة والتموين اليهم[٥١].

بلغ نشاط اهل الموصل ودفاعهم اقصاه، حتى ان جند السلطان استطاعوا مرة ان يحدثوا ثقباً في السور، وادركهم الليل فتراجعوا الى معسكرهم، فلما طلع الصباح اذا باهل البلد قد بنوه وملأوه بالمقاتلين. ومما زاد في سيطرة اهل الموصل على الموقف، حالة البلد الاقتصادية – آنذاك – فقد كانت اسعار المواد الغذائية رخيصة وبخاصة الحنطة والشعير[٥٢].

دام القتال حتى اليوم العاشر من جمادي الاولى حيث وصل الخبر الى جكرمش بوفاة السلطان بركياروق، فعقد مجلسا استشاريا من اعيان البلد واستشارهم فيما يفعل اثر موت السلطان بركياروق، فردوا عليه بان اموالنا وارواحنا بين يديك، وانت اعرف بشأنك فاستشر الجند فهم ادرى بذلك. فاستشار امراءه فاجابوه : كنا على الامتناع، ولم يتمكن احد من الاستيلاء على بلدنا عندما كان السلطان حيا، واما بعد ان توفي فليس للناس اليوم من سلطان غير محمد، والدخول تحت طاعته اولى. فارسل جكرمش الى السلطان محمد يبذل له الطاعة ويطلب مقابلة وزيره سعد الملك، فجاءه الوزير واخذ بيده وقال له بان المصلحة تقتضي ان تحضر الساعة عند السلطان فانه سوف لا يخالفك في جميع ما تلتمسه. فاستجاب جكرمش لرأيه وغادر مقر الامارة صوب معسكر السلطان، فلما رأى اهل الموصل ذلك تملكهم التشاؤم وضجوا بالبكاء. وما ان دخل جكرمش على السلطان حتى اقبل هذا عليه معانقا ومرحبا، ولم يطلب اليه الجلوس قائلاً ارجع الى رعيتك فأن قلوبهم اليك وهم متطلعون الى عودتك. فعاد الى الموصل يصحبه جماعة من خواص السلطان. وفي اليوم التالي اعلن السلطان عن رغبته لجكرمش بدخول البلد وبأن تقام معالم الزينة بهذه المناسبة. فامتنع جكرمش عن قبول الطلب، ولعله أراد بذلك ان يحافظ على كرامة مركزه من جهة وان يفوت فرصة احتلال المدينة واحتمال الغدر به من جهة اخرى، واكتفى بأن مد سماطا بظاهر الموصل، وحمل الى السلطان ووزيره الكثير من التحف الرائعة والهدايا[٥٣]. ومن ثم غادر السلطان الموصل مطمئنا الى ما حققه من نتائج ازاء جكرمش وامارته.

لم تمض على هذه الاحداث سنتان حتى جابهت جكرمش محنة اخرى اشد من الاولى. وقدر لهذه المحنة ان تقضي ليس فقط على منصب جكرمش بل على حياته ايضاً. ففي مطلع عام (٥٠٠هـ) اقطع السلطان السلجوقي اميره (جاولي سقاو) الموصل وجميع الاعمال والمواقع

---

(٥١) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٤٣، ابن خلدون : تاريخ ٥/٣٤.

(٥٢) الكامل ١٠/١٤٣.

(٥٣) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٤٣، ابن خلدون : تاريخ ٥/٣٤.

التي يحكمها جكرمش. وكان جاولي قبل هذا قد استولى على البلاد الواقعة بين خوزستان وفارس واقام بها عدة سنين، وعمر قلاعها وحصونها، الا انه اساء السيرة في اهلها. فلما تمكن محمد من السلطنة، عرف جاولي انه سوف لا يدعه وشأنه فتحصن في منطقته وأعلن العصيان الا ان السلطان ارسل اليه يؤمنه، فاطمئن جاولي اليه وغادر مقاطعته الى اصبهان حيث يقيم السلطان وهناك رأى منه ما يحب(٥٤)

كانت الرسائل قد تتابعت على السلطان محمد في هذه السنة (٥٠٠هـ) من بعض امراء الشام، يعلمونه فيما عما استولى عليه الصليبيون من المواقع في الشام، وعما لحق السكان والبلاد على ايديهم من الفتك والافساد في الارض، وعن محاصرتهم طرابلس وتشديدهم النكير عليها، ويستغيثون به طالبين نجدة مستعجلة. فندب السلطان الامير جاولي، وعدداً اخر من كبار الامراء، في جيش كثيف من الاتراك، وكتب الى بغداد بضرورة امداد قواته بالمال والرجال(٥٥). وامر قائده بالتوجه الى الشام لايقاف تقدم الصليبيين، ومحاولة استرداد ما استولوا عليه، واقطعه الموصل والجزيرة جميعا(٥٦).

كان جكرمش قد اتفق مع السلطان محمد على ان يدفع اليه مبلغا من المال وان يكون تحت طاعته مستجيبا لكل ما يصدره اليه من اوامر وان يقدم للاجتماع به وتلتقي تعليماته بين الحين والاخر. إلاّ ان جكرمش لم يف بهذا الاتفاق، وتثاقل عن اداء التزاماته المالية مما دفع السلطان الى ان يقطع بلاده لجاولي. فتقدم هذا الى بغداد واقام بها بعض الوقت ثم غادرها في ربيع الاول صوب الموصل بمحاذاة الضفة اليسرى لنهر دجلة، واستولى في طريقه على ما صادفه من قرى ومواقع. وعندما اقترب من اربل واحس جكرمش بالخطر المحيط به استدعى جيوشه من اطراف امارته، وجاءته رسالة من ابي الهيجاء بن موسك الكردي صاحب اربل يذكر فيه تقدم قوات جاولي ويقول لجكرمش : ان لم تعجل المجيء لنتفق ضده ونصد تقدمه، اضطررت الى الاتفاق معه. فاجابه جكرمش وعبر دجلة مسرعا على رأس قواته قبل ان يتم له تجميع كافة عساكره من اطراف البلاد. وفي قرية كلبا من اعمال اربل اجتمع جكرمش بجيش اربل الذي ارسله ابو الهيجاء بقيادة ابنائه. وهناك ادركهم جاولي. وكان ظاهر الحال يوحي

---

(٥٤) الكامل ١٠/١٥٨.

(٥٥) ابن القلانسي ، تاريخ دمشق ، ص١٥٦.

(٥٦) يورد ابن القلانسي (المصدر السابق ، نفس الصفحة) رواية تختلف عما اورده ابن الاثير ، اذ يشير الى ان السلطان محمد كتب الى جكرمش ، في جملة من كتب اليهم ، يأمره بامداد جاولي بالمال والرجال لقتال الصليبيين ، وانه اقطع جاولي الرحبة والمناطق الفراتية القريبة فحسب ، وان هذا سار الى الموصل والتمس من جكرمش تنفيذ ما طلبه السلطان منه. الا ان هذا لم يجبه الى مطالبه ، ومن ثم تم بينها اللقاء ... ولا ريب ان ما اورده ابن الاثير اكثر دقة وانسجاما مع طبيعة الاحداث كما سنرى.

بانتصار جكرمش وحلفائه لتفوق عددهم على قوات جاولي، ولكن الهزيمة حلت به واسر جكرمش نفسه فأمر جاولي بتشديد الحراسة عليه[٥٧]

كانت الجيوش التي استنفرها جكرمش قد وصلت الموصل – بعد يومين من استدعائها فاتجهت مباشرة صوب اربل لمساندة جكرمش ولكن بعد فوات الاوان. وعندما وصل خبر الهزيمة الى الموصل نصب اعيان البلد في الولاية زنكي ابن جكرمش الذي لم يكن قد جاوز الحادية عشرة من عمره، وخطبوا له. وقام مستحفظ القلعة المسمى غزغلي، وهو احد مماليك جكرمش، بنشاط واسع حيث وزع الاموال والخيول والميرة على الجند وارسل الكتب الى امير الحلة وسلطان سلاجقة الروم (قلج ارسلان) وآق سنقر البرسقي شحنة بغداد يطلب منهم فيها التقدم الى الموصل لصد جاولي عنها، واعداً كلا منهم بتسليم البلد اليه[٥٨].

وصل جاولي الموصل وضرب الحصار عليها، وسعى الى استغلال وجود جكرمش في الاسر للضغط على اهالي البلد كي يكفوا عن المقاومة. فأمر اصحابه بأن يحملوا جكرمش – كل يوم – على بغل لينادي اتباعه بتسليم البلد من اجل انقاذ اميرهم وتخليصه مما هو فيه. وكان جكرمش يأمرهم بذلك فلا يستجيب له احد. وكان يعاد اثر كل محاولة الى جب ليسجن هناك ويوكل به من يحرسه من اية محاولة لاختطافه. وظل على هذا الحال الى ان توفي وقد جاوز عمره الستين عاما[٥٩]

لم يستجب أمير الحلة ابن مزيد لرسالة غزغلي واعتبر ذلك خروجا عن طاعة السلطان، واما قلج ارسلان فانه تقدم على رأس قواته لنجدة الموصل وما ان سمع جاولي بوصوله الى نصيبين حتى غادر الموصل متوغلا في الجزيرة. واما البرسقي – شحنة بغداد – فقد سار الى الموصل وعسكر في جانبها الشرقي وانتظر اشارة من اهالي الموصل أو من غزغلي فلم يلتفت اليه احد أو يرسل اليه كلمة واحدة فانكفأ راجعا في نفس اليوم[٦٠]

أرسل اهالي الموصل وجندها الى قلج ارسلان وتبادلوا معه العهود والمواثيق على النصح والطاعة فتوجه قلج مطمئنا الى الموصل ودخلها في الخامس والعشرين من رجب، واستقبله ابن جكرمش واصحابه فخلع عليهم. ومن ثم تسلم مهام منصبه، واسقط اسم السلطان محمد من الخطبة وخطب لنفسه بعد الخطبة للخليفة، واحسن الى الجيش، وتسلم القلعة من غزغلي وعين فيها مستحفظاً اخر والغى الرسوم والضرائب المجحفة، ونشر العدل في السكان وتألف قلوبهم، واعلن

---

(٥٧) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٥٨–١٦٠.

(٥٨) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٥٨–١٦٠.

(٥٩) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، أبو الفدا : المختصر ٤/١٤٠، ابن خلدون ٥/١٦٤.

(٦٠) الكامل ١٠/١٥٩–١٦١.

ان من سعى اليه باحد – دون حق – قتله، وكان لهذا الاعلان اثر بالغ في وقف الفوضى واخماد الفتنة. وقد اقر قلج ارسلان قاضي الموصل العريق عبدالله بن الشهرزوري على منصبه لما له من محبة في قلوب الناس ومن تمكن في القضاء. وبعد ان اطمئن قلج الى ما احدثه من اصلاحات وأقره من نظم، ولى على الموصل ابنه ملكشاه وابقى معه قوة من الجند لحمايته ووكل احد امرائه بالوصاية عليه، ثم غادر الموصل ليصفي حسابه مع جاولي[٦١]

كان جاولي قد هاجم الرحبة وتمكن من الاستيلاء عليها ونهبها، وعندما علمت قوات قلج ارسلان بمدى قوة جاولي، انفصل عنه بعض الامراء عائدين الى بلادهم، فعمد قلج الى تجنب الاصطدام بعدوه خوفا من الهزيمة، ولكن الامور جرت على غير ماراده، فتم اللقاء بقوات جاولي – التي كانت تعززها عساكر رضوان امير حلب – في ٢٠ ذي القعدة، ونزلت الهزيمة بقوات قلج – كما توقع – وايقن ان اسره سيكون وبالاً عليه لانه لم يدع للصلح مجالاً من قبل، ولانه نازع السلطان السلجوقي في بلاده وانتزع منه اسم السلطنة، ففر هاربا عبر نهر الخابور، الا ان فرسه لم تمكنه من اتمام العبور فغاصت بصاحبها الى الاعماق[٦٢]

جاولي سقاو ٥٠٠-٥٠٢هـ :

أسرع جاولي بالتوجه صوب الموصل، فلما وصلها فتح له سكانها الابواب ولم يتمكن انصار قلج ارسلان من منعهم. ورأى جاولي ان من الافضل له النزول – اولا – خارج الموصل كي يبدأ من هناك تصفية العناصر المعادية، فبدأ بتشريد اصحاب جكرمش الذين قاتلوا ضده الى جانب قلج ارسلان، ونفاهم الى بلاد شتى. ومن ثم دخل الموصل واعاد الخطبة للسلطان السلجوقي محمد، وصادر الكثيرين من اصحاب جكرمش، والقى القبض على ابن قلج ارسلان وارسله الى السلطان محمد. وبعد ان استتب له الامر في الموصل تقدم الى جزيرة ابن عمر فصالحه اهلها وقدموا اليه مبلغا من المال ومقادير كبيرة من ثياب ودواب فتركهم عائداً الى الموصل[٦٣]

---

(٦١) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٥٩-١٦١، ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٥٦-١٥٨، ابن العبري : مختصر تاريخ البشر ، ص١٩٨-١٩٩، أبو الفدا : المختصر ٤/١٤٠ ، ابن خلدون : تاريخ ٥/٣٧-٣٩،١٦٥.

(٦٢) نفس مصادر الهامش السابق .

(٦٣) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٦١، ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٥٧-١٥٨، ابن الوردي ، تاريخ ٢/١٨، أبو الفدا : المختصر ٤/١٤٠، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/١٦٧، ابن خلدون : تاريخ ٥/٣٨،١٦٥.

وهنا تنتهي المرحلة الثانية من الصراع على السلطة في الموصل، وهي مرحلة تختلف في طبيعتها عن سابقتها. فقد نشب الصراع – ها هنا – بين مندوب عن السلطان يحمل توقيعه بتولي الموصل واعمالها وبين والٍ آخر لم يف بتعهداته للسلطان، فضلاً عن وقوفه بوجهه عام (٤٩٨) – كما رأينا – ومن ثم فان الوالي الجديد يحمل معه مقومات النصر الادبية والعسكرية ضد غريمه فضلاً عن انه انطلق منذ البدء برسالة مقدسة هي الجهاد ضد الصليبيين. ولكن بالرغم من ذلك كله استطاع جكرمش – بتأييد الاهالي له – ان يصمد امام الخطر لبعض الوقت. وقد قام كل من الطرفين – خلال ذلك – بعقد المحالفات مع اكبر عدد من الامراء المحليين، وبينما ظل حلفاء جاولي انصاراً مخلصين له حتى النهاية، نجد حلفاء جكرمش لا يوفون بالتزاماتهم تجاه الموصل لعلمهم ان تشبثهم بموقفهم يعني معارضتهم للسلطان السلجوقي، وقد كان لهذا العامل اسوأ الاثر بالنسبة لانصار جكرمش.

ظل جاولي على طاعته واخلاصه للسلطان محمد، ونفذ اوامره عام (٥٠١هـ) بالتوجه إلى قلعة الموت في بلاد فارس – بصحبة ضياء الملك وزير السلطان – لقتال الباطنية، فسارا إلى هناك وهزما الباطنية وقتلا منهم عدداً كبيراً[٦٤]. ولكن جاولي بدأ يشعر بالتدريج بازدياد مكانته، خاصة بعد ان جعل السلطان اليه ولاية كل بلد يفتحه، فاستولى على كثير من البلاد والاموال، وغرته القوة والجاه فامتنع عن تادية التزاماته المالية تجاه السلطان، كما رفض دعوة السلطان اليه عام (٥٠١) بالتوجه الى بغداد بمعية قواته لاسناد السلطان في احدى مهامه العسكرية، واعاد السلطان طلبه على جاولي الا ان هذا اخذ يتحايل كيلا يقوم بتنفيذ الامر زاعما انه يخاف من عواقب الاجتماع بالسلطان. ثم ما لبث الامر ان انتهى باعلان جاولي العصيان ضد السلطان السلجوقي. وكان قد مهد لذلك بسلسلة مكاتبات مع صدقة بن دبيس المزيدي صاحب الحلة الذي كان هو الاخر في صراع مع السلطان، وقد ابدى جاولي له استعداده لمساعدته في حالى حربه مع غريمه ولكن السلطان سرعان ما تغلب على صدقة وقتله، ثم اصدر اوامره الى مجموعة من الامراء بقيادة مودود بن التونتكين بالتوجه الى الموصل وانتزاعها من جاولي. وعندما وصل هؤلاء وجدوا جاولي قد اتخذ كافة الاجراءات الدفاعية فشيد سور الموصل، واحكم ما بناه جكرمش من قبل، واعد الميرة والمؤن وآلات القتال، ومارس ضغطه ضد اعيان المدينة واعتقل عدداً كبيراً منهم، وابعد عن الموصل عدداً كبيراً ممن لا يطمئن اليهم، وفرض نظام حظر التجول، وهدد باعدام كل من يخالف اوامره المشددة هذه. ثم غادر الموصل متجها الى الشام – بعد ان قام

---

(٦٤) الحسيني : الدولة السلجوقية ، ص٨١.

بنهب مزارع الموصل – تاركا زوجته تشرف من القلعة على شؤون الدفاع عن المدينة، وجعل في حمايتها الفا وخمسمائة فارس من الاتراك وعدداً من الرجالة[٦٥].

وفي رمضان عام (٥٠١هـ) فرضت قوات السلطان محمد حصارها على المدينة. والصورة التي تبدو – بعد ذلك – عن العلاقة بين حكام الموصل واهاليها تختلف كثيراً عن تلك التي شهدناها حين حاصر السلطان الموصل عام (٤٩٨هـ). فها هنا نجد شريعة الظلم وعدم التعاون والغدر والمصادرات والاعتقالات. فما ان غادر جاولي الموصل حتى راحت زوجته تمارس شتى انواع الظلم، فقامت بمصادرة من بقي في البلد من الاعيان، والحقت الاذى بأزواج المبعدين، وبالغت في التشديد على السكان مما دفعهم الى النفور وعدم التعاون معها في صد هجمات القوات المحاصرة. وقد تتابعت هذه الهجمات حتى نهاية المحرم، واتخذ الجند المدافعون حذرهم فلم يسمحوا لاي من سكان الموصل بالاقتراب من السور. فلما اشتدت وطأة الحصار على اهالي الموصل وضاقوا ذرعا بظلم زوجة جاولي عقد نفر من الجصاصين اجتماعا سريا فيما بينهم، اتفقوا خلاله على تسليم البلد لقوات السلطان عن طريق فتح منفذ يندفعون منه للاستيلاء على الموصل. وما ان حانت صلاة الجمعة واتجه الناس الى الجامع حتى صعد الجصاصون الى احد الابراج واغلقوا ابوابه، وقتلوا من به الجند الذين كانوا يغطون في نوم عميق، واستولوا على سلاحهم والقوا جثثهم الى اسفل السور ثم تقدموا الى البرج الاخر للاستيلاء عليه، ولكن الجند اكتشفوا امرهم وهاجموهم، فقاتلهم الجصاصون وهم ينادون بشعار السلطان السلجوقي حتى تمكنت قوات السلطان من الدخول الى المدينة عبر المنفذ الذي يسيطر عليه الجصاصون. وسرعان ما تم الاستيلاء على الموصل ودخلها الامير مودود فاشاع فيها الامن وارسل من ينادي بان يعود الناس الى دورهم واملاكهم بعد المحنة والتشريد الذي اصابهم على يد انصار جاولي وزوجته. وقد اعتصمت هذه في القلعة طيلة ثمانية ايام، واخذت تراسل مودود طالبة منه ان يفسح لها طريقا للخروج وان يعطيها الامان، فاجابها مودود الى طلبها ومن ثم غادرت الموصل حاملة الكثير مما استولت عليه[٦٦]

---

(٦٥) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٧٢–١٧٤، ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٦٠ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨/٣١، ابن واصل : مفرج الكروب ١/٢٨–٢٩ ابن خلدون ٥/٣٩–٤١.

(٦٦) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٧٢–١٧٤ الباهر ، ص١٦ ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٦٠ ، أبو شامة : الروضتين ١/٦٧–٦٨، الفارقي : تاريخ ، ص٢٧٥ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨/٣١، ابن واصل ، مفرج الكروب ١/٢٨–٢٩ ، ابن خلدون ٥/٣٩–٤١.

مودود بن التونتكين ٥٠٢-٥٠٧هـ :

بدأ مودود حكم الموصل واعمالها باتباع سياسة حازمة ازاء انصار جاولي، واخرى لينة عادلة رقيقة ازاء السكان. فقتل كثيراً من اصحاب جاولي، ووجه من بقي منهم الى السلطان بما يحملونه من أموال ليرى فيهم رأيه(٦٧). وشهدت الموصل - بانتهاء تمرد جاولي - عهداً جديداً من الاستقرار الداخلي بسبب عدم نزعة الامير الجديد الى التمرد أو السعي الى الانفصال عن طاعة السلطان السلجوقي. وقد عرف عن مودود انه مجاهد من الطراز الاول، صب جل قواه وتفكيره في ميدان الجهاد، وكانت معظم غزواته ضد الصليبيين بأمر من السلطان(٦٨) ، بل ان انطلاقه - في البدء - الى الموصل حاملا الامر السلطاني بجهاد الصليبيين وانتزاع الموصل من يد جاولي في طريقه(٦٩) يوحي بان مودوداً لم يكن والياً لمدينة الموصل واعمالها بقدر ما كان قائداً عسكريا وجهه السلطان لقتال الصليبيين على ان يتخذ الموصل قاعدة لحركاته بسبب موقعها الستراتيجي الممتاز بوجه الصليبيين الزاحفين صوب الشرق. ومنذ هذه الفترة غدت الموصل - اكثر من ذي قبل - منجما لقوى عسكرية كثيرة ولقيادات محنكة وجهت قواها - بتنظيم دقيق وعقد محالفات مع امراء المنطقة - من اجل ايقاف الخطر الصليبي عند حده(٧٠).

ساس مودود رعيته بالعدل والانصاف، والتزم بتعاليم الدين، ونظم الصدقات، وامر بالمعروف ونهى عن المنكر. وقد اتت سياسته هذه اكلها فشاع الخير في كل مكان من ارجاء ولايته، وقد انعكست سياسته السمحة هذه على علاقاته بالامراء والحكام في الداخل والخارج، تلك العلاقات التي سادها الاخلاص والوفاء، وكان مودود يضحي - في سبيل ذلك - احيانا ببعض ممتلكاته. فقد وهب حران - مثلاً - اثر استيلائه عليها عام (٥٠٣هـ) للامير الارتقي ايلغازي بن أرتق أمير ماردين(٧١). كما انشأ مودود علاقة ودية مع طغتكين امير دمشق لتعزيز الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين. وقد التحق به في الموصل كثير من الامراء منهم بدران بن

---

(٦٧) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٦٠.

(٦٨) المصدر السابق ، ص١٦٩-١٧٤،١٧١-١٧٨، ١٨٧ ابن الاثير : الكامل ١٨٢/١٠-١٨٣، ابن العديم : زبدة الحلب ١٥٤/٢-١٥٨،١٥٦-١٦١، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٩٩،٢٠١/٥، ابن كثير : البداية والنهاية ١٧٣/١٢، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٣٥/٨-٣٦.

(٦٩) الكامل ١٧١/١٠، ابن القلانسي ، تاريخ دمشق ، ص١٦١.

(٧٠) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ١٧٠-١٧٤،١٧١-١٨٧،١٧٨، ابن العديم : زبدة الحلب ١٥٤/٢-١٥٦، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٣٦/٨-٣٧ وانظر القسم الثاني من هذا البحث .
ملاحظة: (٦٣) ابن القلانسي ، ص١٨٨. غير مشار له في المتن.

(٧١) ابن القلانسي ، ص١٨٨.

صدقة المزيدي صاحب الحلة الذي كان السلطان محمد قد قتل اباه، فأكرم مودود مثواه واحسن صحبته[٧٢] . كما اتصل به الامير عماد الدين زنكي ومجموعة من الامراء انشقوا عن جاولي بعد عصيانه. وقد عرف مودود لزنكي هذا الموقف، فضلا عما كان يكنه لابيه اق سنقر من تقدير، وما كان يتميز به زنكي نفسه من عقل وشجاعة، مما دفع مودود الى منحه مزيدا من الاقطاعات واشراكه معه في حروبه ضد الصليبيين[٧٣].

وفي عام (٥٠٥) قام السلطان محمد بتسليم ولده مسعود الى الامير مودود ليشرف على تربيته وليسهم – ابن السلطان – معه في حروبه ضد الصليبيين[٧٤]. ولكن العلاقة بين مودود والسلطان محمد رغم هذا كله لم تخل من اضطراب وعدم استقرار بما كان يدسه حسّاد مودود ومنافسوه لدى السلطان بأنه عازم على العصيان، وانه قد غدا يدا واحدة مع طغتكين امير الشام دون اهتمام حقيقي بمركز السلطان. ولكن مودود لم يدع السلطان يرتاب في نواياه، اذ انه سرعان ما ارسل عام (٥٠٦هـ) ولده وزوجته ليعلنا للسلطان اخلاص مودود وبراءته ويعتذرا له عما رمى به، ويعلماه بانه باق على ما الف منه السلطان من الطاعة والمناصحة في العمل والاهتمام بالجهاد[٧٥].

ولم تكن ظنون السلطان محمد باطلة كلها، فالعلاقة بين مودود وبين حليفه طغتكين امير دمشق بلغت درجة كبيرة من القوة والاستعداد والتمكن، حتى انهما عزما على الميل الى الملك رضوان بن تتش السلجوقي صاحب حلب واقامة الخطبة له، ومن ثم استغلال اسمه كواجهة رسمية يفرضان من ورائها سيطرتهما الفعلية على بلاد الموصل والشام، ويكونان – اذ ذاك – اكثر تمكنا في الجهاد ضد الصليبيين اذ سيقودان القتال بانفسهما مباشرة، دون انتظار لاوامر تاتي من السلطان. الا ان تردد رضوان وعدم تقديم المساعدات العسكرية والمالية التي التزم بها ازاء حليفيه في جهادهم للصليبيين ابطل خطة مودود وحليفه طغتكين فعدلا عما كانا عزما عليه، وعادا من جديد الى توثيق علاقاتهما بالسلطان[٧٦].

في هذه العقود الحاسمة من تاريخ المسلمين ازداد نشاط الباطنية وقاموا بحركة اغتيالات واسعة النطاق ضد مناوئيهم، كان الامير مودود من ضحاياها. فانه بعد عودته الى دمشق مع حليفه طغتكين اثر اجتيازهما سلسلة معارك موفقة ضد الصليبيين في مناطق طبرية وجنوبي الشام، اذن مودود للجنود في التفرق الى بلادهم لاخذ قسط من الراحة، وعزم هو على البقاء في

---

(٧٢) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٧٨.

(٧٣) ابن الاثير : الباهر ، ص١٦–١٧، أبو شامة : الروضتين ١/٦٧–٦٨.

(٧٤) الاصفهاني : آل سلجوق ، ص١٥٨–١٥٩.

(٧٥) ابن القلانسي : تاريخ دمشق من ١٨٤.

(٧٦) المصدر السابق ، ص١٨٤–١٨٦.

دمشق ليكون قريبا من العدو، ولينتظر ما يصدر اليه السلطان من اوامر وما يبعث به اليه من رسائل وخطط يعمل على هديها. وكانت عودة مودود وحليفه الى دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الاول (٥٠٧هـ). وقد بالغ طغتكين في اكرام مودود وتولى خدمته بنفسه. وكانا يخرجان سوية الى صلاة الجمعة في المسجد الاموي الجامع في دمشق. فلما كان يوم الجمعة الاخيرة من ربيع الآخر سنة (٥٠٧ هـ) دخل مودود ومضيفه إلى الجامع على عادتهما فلما قضيت الصلاة غادرا المسجد يتقدمهما عدد كبير من الحراس، وتزاحم الناس حولهما لمشاهدة قادتهم المنتصرين. كان مودود وطغتكين يسيران ببطء، فلما وصلا صحن الجامع وثب رجل لا يحفل به من بين الناس واقترب من مودود كانه يريد ان يدعو له ويطلب صدقته. وبسرعة امسك هذا الرجل بحافة قباء مودود وضربه بخنجره اسفل صرته ضربتين، وما لبث الحراس ان انقضوا على الرجل واطاحوا براسه بسيوفهم الامر الذي لم يتح لهم معرفة ملامح الرجل. اما مودود فقد سار متماسكا على نفسه حتى الباب الشمالي للجامع حيث انهارت قواه فسقط على الارض وحمل من هناك إلى دار الامارة بصحبة طغتكين. واضطرب الناس اضطرابا شديدا، ثم اطمانوا بعض الشيء لدى مشاهدته وهو يمشي وسط الجامع قبل ان يستنفد قواه، وظنوا انه قد خرج سالما من المحاولة. ولم تجد محاولات الاطباء معه شيئا اذ توفي بعد ساعات يسيرة من نفس اليوم فقلق طغتكين لمقتل حليفه وتملكه الحزن والاسف، وعمت مشاعر الاسى الحزين هذه الاجناد والناس. وحملت جثة مودود إلى بغداد، وتفرق جنده واصحابه عائدين إلى بلادهم(٧٧).

جيوش بك ٥٠٧هـ (الولاية الاولى) :

ما ان علم السلطان محمد بمقتل مودود حتى اصدر امره الى الامير جيوش بك بتولي الموصل واعمالها، وارسل معه ولده الملك مسعود وفق التقليد الذي يقضي بتسليم ابناء السلاطين الى كبار الامراء والاتابكة لكي يشرفوا على تربيتهم وتعليمهم مهام الحكم واعباء المسؤولية. وقد قام السلطان في نفس الوقت بتجهيز الامير آق سنقر البرسقي بقوات حاشدة وتسييره لقتال الصليبيين(٧٨).

---

(٧٧) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٨٧-١٨٨، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨/٥٠-٥١. ابن العبري : مختصر ، ص٩٩، ويخطئ كل من الفارقي : تاريخ ، ص٢٨٠ وابن الجوزي : المنتظم ١٦٧/٩ وابن كثير : البداية والنهاية ١٧٣/١٢ في تحديد تاريخ مقتله. ويذهب كل من ابن الاثير : الكامل ١٨٧/١٠، ١٨٩ والاصفهاني : آل سلجوق ، ص ١٥٨-١٥٩ وأبو الفدا : المختصر ١٤٥/٤ وابن خلدون ٤٢/٥، ١٥٣، ١٩٥ الى ان طغتكين خاف من مودود على دمشق فدس له السم ، وان السلطان محمد اتهم طغتكين بقتل مودود. (انظر القسم الثاني من هذا البحث حول تفنيد هذا الرأي).

(٧٨) ابن الاثير : الباهر ، ص١٩-٢٠، أبو شامة : الروضتين ٦٩/١، ابن واصل : مفرج الكروب ٢٩/١.

ولم تطل فترة حكم جيوش بك، فلم تزد عن عدة اشهر، ويبدو انها كانت فترة انتقالية ريثما يعزز البرسقي الانتصارات التي احرزها سلفه ضد الصليبيين ومن ثم يتسلم مهام الحكم في الموصل، بما عرف عنه من خبرات ادارية ايام كان شحنة للعراق(٧٩).

آق سنقر البرسقي ٥٠٧-٥٠٩هـ (الولاية الاولى) :

وفي عام (٥٠٨) توجه البرسقي إلى الموصل - بامر من السلطان - على راس جيش كبير، يصحبه الملك مسعود بن السلطان. واوصاه السلطان بالا يغفل امر الجهاد، وكتب إلى سائر الامراء بطاعته، فوصل إلى الموصل وانضمت اليه عساكرها، وغادرها صوب جزيرة بن عمر فسلمها اليه حاكمها السابق. ثم توجه البرسقي - بعد ذلك - إلى ديار بكر لارغام الاراتقة على امداده بقواتهم قبل ان يبدأ قتاله للصليبيين، وربما قصد من ذلك تهديدهم واشعارهم بقوة مركزه، وقد امده بعض امراء الاراتقة بعدد من قواتهم، الا ان اسلوب البرسقي الاستفزازي اشعل نار الحرب بين الطرفين ودارت معركة قاسية بينهما في اواخر عام (٥٠٨) انتهت بانتصار الاراتقة وهزيمة البرسقي(٨٠).

جيوش بك ٥٠٩-٥١٤هـ (الولاية الثانية) :

ويظهر ان الشك وعدم الاطمئنان الى الولاة قد سيطر على السلطان محمد في المرحلة الاخيرة من حكمه، هذا الشك الذي دفع كلا من ايلغازي الارتقي امير ماردين، وطغتكين امير دمشق الى الخروج عن طاعته علانية والاتجاه الى التحالف مع الصليبيين(٨١) اذ انه سرعان ما اصدر امره عام (٥٠٩هـ) بتولية الموصل واعمالها لجيوش بك للمرة الثانية، وابعاد البرسقي الذي التجا الى اقطاعه في الرحبة حيث اقام هناك منعزلا شبه منفي(٨٢). واغلب الظن ان الجهود التي

---

(٧٩) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٤٨، ابن الجوزي : المنتظم ٩/١٤٣. والشحنة : وظيفة استحدثها السلاجقة ، ويعين صاحبها من قبل السلطان ، وهي اشبه ما تكون بوظيفة (المحافظ) في عصرنا الحاضر ، يتمتع شاغلها بسلطات بوليسية وادارية ، وهو المسؤول عن ادارة المنطقة وملاحقة الخارجين عن النظام : حسين امين ، نظام الحكم في العصر السلجوقي ، مجلة سومر ، مجلد ٢٠ ، سنة ١٩٦٤.

(٨٠) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٨٩، الاصفهاني : آل سلجوق ، ص١٥٨-١٥٩، الحسيني : الدولة السلجوقية، ص١٠٦، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨/٥٢، ابن الوردي : تاريخ ٢/٢٢، ابن خلدون ٥/٤٢.

(٨١) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٨٩، ١٩٢-١٩٣، ابن خلدون ٥/٢١٣

R. Grousset: Histoire des Croisades 1/491-494. 506-511. S. Runciman: Ahistotory of the Crusades. 11/126-129, 133.

(٨٢) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٩٤، أبو الفدا : المختصر ٤/١٤٨، ابن خلدون ٥/٤٣.

بذلها جيوش بك في حروبه ضد طغتكين وايلغازي الخارجين عن طاعة السلطان هي التي رشحته لتولي الموصل ثانية، فضلا عن كونه اتابكا (مربيا) لابنه الملك مسعود.

بدأ جيوش بك باحلال الامن والاستقرار محل الفوضى التي سادت الموصل واعمالها في الفترة الاخيرة حيث كان عدد من العشائر قد اكثروا الفساد وقاموا بانشاء قلاع خاصة بهم في اماكن شتى اتخذوها مراكز يحتمون بها اثر هجماتهم المستمرة، مما ادى الى فقدان الامن عبر طرق المواصلات. وضاق الناس ذرعا بهذه الاوضاع. فاسرع جيوش بلء بمهاجمة تلك القلاع المنتشرة في الجهات الشمالية من الموصل، وراحت تسقط واحدة تلو الاخرى. واخذ يطارد قطاع الطرق بنفسه فخافوه وهربوا بين يديه في الجبال والمضائق والشعاب، وتمكن اخيرا من القضاء عليهم، فامنت الطرق وعاد الناس تجارا ومزارعين الى اعمالهم، والقى قطاع الطرق السلاح، ولم يجسروا على حمله ثانية طيلة عهد جيوش بك لما كان يتميز به من مهابة وعزيمة ماضية[٨٣].

كان طموح جيوش بك بعيد الحدود، وكان يامل في تنصيب الملك مسعود – الذي كلف جيوس بك بتربيته – على عرش السلطنة كي يسيطر هو فعليا على مقدرات الدولة السلجوقية باسمه. وقد واتته الظروف عام (٥١٢هـ) لتحقيق هذا الامل. ففي هذا العام توفي السلطان محمد وانتقلت السلطة الى ابنه محمود. فاتفق جيوش بك مع الملك مسعود على التوجه الى بغداد والاستيلاء عليها قبل ان يتمكن السلطان الجديد منها، وقاما بتجهيز قواتهما لهذا الغرض، وقد انضم اليهما عدد من كبار الامراء كصاحب اربل وامير سنجار وغيرهما. ومن ثم تقدموا جميعا للاستيلاء على بغداد، فحاول البرسقي – الذي كان السلطان محمد قد عينه شحنة على العراق – الدفاع عن المدينة نيابة عن السلطان الجديد محمود. الا ان الملك مسعود استطاع ان يستميله ويضمّه الى صفوفه عندما اعلمه انهم انما جاءوا نجدة له ضد امير الحلة الذي كان البرسقي قد قرر اجلاءه عنها، فسر البرسقي لهذه النجدة واتاح للملك مسعود ان ينزل في دار المملكة في بغداد. وعندما سمع السلطان محمود بذلك ارسل احد امرائه لتثبيت سلطته هناك، وابعاد مسعود وجيوش بك عنها. وتمكن الطرفان اخيرا من عقد صلح دون ان ينشب اي قتال بينهما[٨٤].

عاد جيوش بك والملك مسعود وقواتهما الى الموصل، وبالرغم مما حدث فان السلطان محمود اقر جيوش بك على الموصل ولم يلحق اي اذى باخيه الملك مسعود[٨٥]. ولعل الاخير عرف لأخيه هذا الصنيع فبقي مطيعا له حتى عام (٥١٤هـ)، وحينئذ اعلن مع اتابكه جيوش بك العصيان ثانية، وشجعهما على ذلك مكاتبات دبيس بن صدقه امير الحلة التي وعد فيها بتقديم

---

(٨٣) الكامل ٢٠٣/١٠.

(٨٤) ابن الاثير : الكامل ٢٠٣/١٠–٢٠٥، ابن خلدون ٤٥/٥–٤٦.

(٨٥) ابن الاثير : الباهر ، ص٢٢.

مساعدته للملك مسعود في سعيه لطلب السلطنة[٨٦]. وكان غرض دبيس من ذلك احداث انشقاق في الجبهة السلجوقية يتيح له النفاذ منه واستغلاله للحصول على مكاسب جديدة كما حصل لأبيه صدقة اثناء الصراع بين السلطانين محمد وبركياروق.

قرر جيوش بك والملك مسعود نقل المعركة هذه المرة الى بلاد فارس نفسها وتوجيه الضربة ضد السلطان محمود مباشرة، تحاشيا من الوقوع في اخطاء التمرد السابق، فضلا عن امكان استخدام اذربيجان التابعة لجيوش بك كقاعدة للهجوم على بقية بلاد فارس. وعندما بلغ السلطان محمود نبأ الاستعداد للتمرد ارسل الى جيوش بك ومسعود يرغبهما ويعدهما بالاحسان ان عادا الى الطاعة، ويتهددهما ان اصرا على العصيان، فلم يستجيبا له، وقوي املهما في تحقيق ما استهدفاه عندما بلغهما تفرق الجند عن السلطان محمود. فاعلنا العصيان واقيمت الخطبة للملك مسعود، ثم تقدما لمهاجمة السلطان محمود منتهزين فرصة تفرق معظم جنده عنه. فقام هذا بحشد من تمكن حشده من قواته استعدادا للقتال. وكان اللقاء قريبا من اسد اباد في ربيع الاول، واستمر طوال النهار وانتهى بهزيمة مسعود وجيوش بك واسر جماعة من امرائهما. وقد تمكن مسعود من الاختفاء في منطقة قريبة وارسل من هناك الى اخيه يطلب الامان، فارسل اليه هذا اميره البرسقي ليعلمه انه قد استجاب لطلبه، فاعتذر الملك مسعود لاخيه عما بدر منه فقبل هذا عذره واشركه في مهام حكمه اما جيوش بك فانه توغل شمالا، وهناك اخذ ينتظر الملك مسعود، ولما ياس من لقائه اتجه صوب الموصل وجمع الغلال والمقاتلين واستعد للحصار. ولكن ما ان بلغه خبر اتصال مسعود باخيه السلطان حتى ايقن الا مقام له في الموصل، فسار هو الاخر الى السلطان طالبا الامان فامنه السلطان واكرمه واقره على اذربيجان بعد ان اقتطع منه الموصل واعمالها[٨٧].

وما كان لقوات جيوش بك ان تندحر على كثرتها وتفوقها لولا ان لعبت عاطفة الاخوة دورها في المعركة. اذ ما ان ابصر مسعود اخاه السلطان حتى مال اليه معرضا معسكره للهزيمة المنكرة والنهب، وقد كان هذا الموقف من مسعود من اسباب احسان السلطان محمود واشراكه معه في الحكم، كما انه رتب شخصا اخر لاتابكيته وخدمته[٨٨].

---

(٨٦) الكامل ٢١٣/١٠-٢١٤، الباهر ، ص٢٢-٢٣، أبو شامة : الروضتين ٧٢/١-٧٣ الاصفهاني : آل سلجوق ، ص١٢٢، الحسيني : الدولة السلجوقية ، ص ٩٦-٩٧.

(٨٧) ابن الاثير : الباهر ، ص٢٢-٢٣، الكامل ٢١٣/١٠-٢١٤، الاصفهاني : آل سلجوق ، ص١٢٢، الحسيني : الدولة السلجوقية ، ص٩٦-٩٧، أبو شامة : الروضتين ٧٢/١-٧٣، ابن واصل : مفرج الكروب ٢٩/١-٣٠، ابن خلدون ٤٩/٥-٥٠.

(٨٨) الاصفهاني : آل سلجوق ، ص١٢٢، الحسيني : الدولة السلجوقية ، ص٩٦-٩٧.

آق سنقر البرسقي ٥١٥-٥٢٠هـ (الولاية الثانية) :

ويظهر ان الموصل واعمالها بقيت عدة اشهر بدون وال، وهي الاشهر المتبقية من عام (٤١٤هـ) والتي اعقبت مغادرة جيوش بك الاخيرة لها. وفي عام (٥١٥هـ) اصدر السلطان محمود امره بتولية آق سنقر البرسقي على الموصل واعمالها (للمرة الثانية). وكان من اسباب هذه التولية ان البرسقي عمل الى جانب السلطان محمود في معظم حروبه، وكان مخلصا له، وقد لعب دورا كبيرا في المعركة الاخيرة التي وقعت بين السلطان محمود واخيه مسعود، حتى ان البرسقي هو الذي قام بدور الوساطة بين الاخوين بعيد انتهاء المعركة. وقد اتبع السلطان محمود التقليد السابق لدى اعلان تولية احد الامراء على الموصل اذ امره بجهاد الصليبيين واسترداد البلاد منهم، كما امر سائر الامراء بطاعته فسار البرسقي الى الموصل على راس جيش كبير، واقام فيها بعض الوقت يدبر امورها ويصلح احوالها[٨٩].

امتاز البرسقي – اكثر من غيره – بالنشاط السياسي والحركة السريعة، فهو تارة في الشام يجاهد الصليبيين وتارة اخرى في بغداد وجنوب العراق يقاتل الخارجين عن طاعة السلطان والخليفة العباسي، وتارة ثالثة على مشارف حلب مستجيبا لنداء الحلبيين بانقاذهم من الاوضاع الاقتصادية والسياسية السيئة التي تردوا فيها خلال مقاومتهم للهجمات الصليبية. وقد استطاع البرسقي ان يكسب ود الامراء المحليين وعلى راسهم طغتكين صاحب دمشق[٩٠] ، كما اكتسب عطف الخليفة العباسي – حينا من الزمن – باشتراكه الى جانبه في حروبه ضد المزيديين في الحلة، فضلا عن انه اكتسب عطف الاهالي سواء في الموصل حيث مقر ولايته، أما في المنطقة – بصورة عامة – حيث اشتهر كقائد من قواد الجهاد ضد الصليبيين.

وقد ادى ازدواج وظيفته كشحنة على العراق ووال على الموصل في نفس الوقت الى عدم الاستقرار في مقر ولايته وتفهم مشاكلها وتطويرها، تلك الامور التي لم يكرس جهوده لها الا بعد اقالته من الشحنكية التي كانت تستدعي دائما وجوده في بغداد للقضاء على الفتن الداخلية والاضطرابات باعتباره نائبا عن السلطان في العراق. وكان البرسقي قد ولي منصب الشحنكية في عام (٤٩٨هـ) من قبل السلطان محمد، وقد اتصف منذ ذلك الوقت بالخير والدين وحسن العهد، ثم عزل عن منصبه عام (٥٠٢) بسبب الدسائس واطماع السلطان[٩١] واعيد اليها عام (٥١٢) من

---

(٨٩) ابن الاثير : الباهر ، ص٢٤، الكامل ١٠/٢٢٣-٢٢٤، أبو شامة : الروضتين ١/٧٣ ابن واصل : مفرج الكروب ١/٣٠، ابن العبري : مختصر ، ص٢٠٢، ابن الوردي : تاريخ ٢/٢٨، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/١٨٨، ابن خلدون ٥/٥٠.

(٩٠) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٩٧-١٩٨.

(٩١) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٤٨، ١٧٨، ابن الجوزي : المنتظم ٩/١٤٣.

قبل السلطان محمد نفسه[٩٢] ، واقيل ثانية عام (٥١٣هـ) واعيد عام ٥١٦هـ – بعد توليه الموصل – وبقي حتى عام (٥١٨هـ) حيث عزل عن منصب الشحنكية بصورة نهائية بسبب نفور الخليفة منه وطلبه من السلطان عزله واعادته الى الموصل. وقد استجاب السلطان الى ذلك وارسل الى البرسقي يامره بالعودة الى الموصل وتركيز اهتمامه في جهاد الصليبيين وارسل برفقته ابنه الصغير ليشرف على تربيته وفق التقاليد السلجوقية المتبعة[٩٣].

لعب البرسقي الدور الاول في ابعاد خطر بني مزيد عن بغداد واقرار الامن فيها كما تمكن من فرض سيطرته على بعض المدن المهمة في جنوبي العراق كواسط والبصرة، واعاد اليهما الاستقرار والهدوء[٩٤] وقد استغرقت هذه الاعمال والحروب من وقته اكثر من عام، ولو انه لم يقل من منصبه كشحنة عام (٥١٨هـ) – كما سبق ذكره – لما استطاع التفرغ لمشاكل ولايته وجهاد الصليبيين والاستجابة لاستغاثة الحليبيين[٩٥].

والحق ان اهم ما انجزه البرسقي بعد عودته من بغداد ليس قتاله الصليبيين، وانما استلامه شؤون الحكم في حلب وحله لمشاكلها وضمها الى الموصل، الامر الذي اقام وحدة بين البلدين كان لها – فيما بعد – ابعد الاثر في الصراع الاسلامي – الصليبي[٩٦].

كان البرسقي شبيها في سيرته وعدله بمودود بن التونتكين، فكان – كما يصفه المؤرخون – حميد الاخلاق، شديد التدين، محبا للخير واهله، مكرما للفقهاء والصالحين[٩٧] وكان شجاعا نال احترام وتقدير الخلفاء والملوك[٩٨] ، لينا، حسن المعاشرة، كثير الصلاة[٩٩] ، عالي الهمة[١٠٠] ، وبذا اجمع معظم المؤرخين على انه كان من خيار الولاة[١٠١].

وكسلفه مودود – ايضا – راح البرسقي ضحية النشاط الباطني. حيث كان الباطنية قد بداوا حملة اغتيالات واسعة لكبار الشخصيات الاسلامية السنية، وبلغت هذه الحملة اوجها في

---

(٩٢) ابن الوردي : تاريخ ٢٤/٢، أبو الفدا : المختصر ١٥٠/٤.

(٩٣) ابن الجوزي : المنتظم ٢٤٩/٩، ابن الاثير : الكامل ٢٣٦/١٠-٢٣٧، الباهر ، ص٢٧، سبط الجوزي : مرآة الزمان ١١٢/٨، ابن خلدون ٥٢/٥.

(٩٤) للاطلاع على تفاصيل اعمال البرسقي الحربية والادارية في بغداد وجنوبي العراق انظر ابن الجوزي : المنتظم ٢٣١/٩، ٢٤٢-٢٤٣، ابن الاثير : الكامل ٢٣٠/١٠-٢٣٢، الباهر ، ص٢٤-٢٧.

(٩٥) انظر : ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢١٠، ابن العديم : زبدة الحلب ٢١٦/٢.

(٩٦) للاطلاع على تفاصيل دخول البرسقي حلب انظر القسم الثاني من هذا البحث .

(٩٧) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢١٤.

(٩٨) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٢٣٠/٥.

(٩٩) ابن الاثير : الباهر ، ص٣١-٣٢.

(١٠٠) ابن العماد : شذرات الذهب ٦١/٤.

(١٠١) ابن الاثير : الكامل ٢٤١/١٠-٢٤٢، ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص٢٠٤.

القرن السادس الهجري. وكانت الباطنية تشكل – اذن – مصدر الخطر الوحيد ضد البرسقي. وقد عرف هو ذلك منذ البداية، فكان على غاية من التيقظ لهم والتحفظ منهم، وكان يحيط نفسه بعدد كبير من الحرس المسلحين الذين كانوا دائما على اهبة الاستعداد[١٠٢] ، كما كان يلبس درعا من حديد[١٠٣]. وقد جهد البرسقي في الحد من خطر الباطنية عن طريق التصدي لهم واستئصال شافتهم وتتبعهم في كل مكان، وقد تمكن من قتل عدد منهم[١٠٤].

رغم كل هذه الاحتياطات والاجراءات تمكن الباطنية الذين تمرسوا على الاغتيال من بغيتهم. ففي التاسع من ذي القعدة سنة (٥٢٠هـ) توجه البرسقي الى الجامع العتيق في الموصل لاداء صلاة الجمعة، وقصد المنبر، فلما دنا منه وثب عليه ثمانية اشخاص متزيين بزي الزهاد واثخنوه ضربا وطعنا، بعد ان تمكن هو وحراسه من قتل بعضهم، ثم حمل جريحا ومات في نفس اليوم. وتم قتل جميع من اشترك في الاغتيال فيما عدا واحدا منهم تمكن من الهرب الى الشام. وكان البرسقي قد رأى في منامه – في الليلة السابقة – بان مجموعة من الكلاب السوداء هاجمته، وقص رؤياه على اصحابه فاشاروا عليه بعدم الخروج من داره اياما، ولكنه رفض اقتراحهم وقال : لا اترك – صلاة – الجمعة لشيء أبداً !! وكان من عادته ان يحضر صلاة الجمعة مع عامة الناس[١٠٥].

ويلقى عماد الدين الاصفهاني ضوءا على الدوافع المباشرة لاغتيال البرسقي من قبل الباطنية، اذ يشير الى العداء المستحكم بينه وبين الدركزيني (الباطني) وزير السلطان السلجوقي محمد، الذي عمل جاهدا ليقنع السلطان بعزل البرسقي فلم ينجح في مسعاه، فاتفق مع الباطنية على اغتياله[١٠٦] وموقف الدركزيني يعيدنا بدوره الى موقف الباطنية العام من زعماء السنة

---

(١٠٢) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢١٤، سبط الجوزي : مرآة الزمان ١١٦/٨–١١٧، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٢٣٠/٥.

(١٠٣) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢١٤، ابن العديم : زبدة الحلب ٢٣٤/٢–٢٣٦.

(١٠٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢١٨/١–٢١٩، ابن العماد : شذرات الذهب ٦١/٤.

(١٠٥) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ص٢١٤، ابن الاثير : الكامل ٢٤١/١٠، الباهر ، ص٣١–٣٢، ابن العديم : زبدة الحلب ٢٣٤/٢–٢٣٦، ابو شامة : الروضتين ٧٤/١–٧٥ ابن واصل : مفرج الكروب ٣١/١–٣٢، سبط الجوزي : مرآة الزمان ١١٦/٨–١١٧، ابن الجوزي : المنتظم ٢٤٩/٩، ابن كثير : البداية والنهاية ١٩٥/١٢، (والثلاثة الاخيرون يخطئون في جعل الحادثة عام ٥١٩هـ) وانظر : الاصفهاني : آل سلجوق ، ص١٣٢ وابن خلكان : وفيات الاعيان ٢١٨/١–٢١٩ وابن العبري : مختصر ، ص٢٠٢.

(١٠٦) تاريخ آل سلجوق ، ص١٣٢.

كالبرسقي هذا الموقف الذي تميز بالعداء والحقد والرغبة في الانتقام، مما كان له اسوا الاثر على مجرى الصراع بين المسلمين والصليبيين.

كيفما كان الامر، فان مقتل البرسقي اصاب المسلمين عامة والموصل خاصة بخسارة فادحة، حيث فقد اهالي الموصل باغتياله واليا من نوع ممتاز، قوي الشخصية، عادلا في الرعية، ملتزما تعاليم دينه، فلا ريب ان يحزنوا عليه ويأسفوا لفقده[١٠٧]، ويستدعوا ابنه عز الدين مسعود ليحل محله.

واغلب الظن ان البرسقي كان الوالي الوحيد للموصل – منذ بدء عهد الولاة عام (٤٨٩هـ) وحتى تولى زنكي – لم يطمح إلى مخالفة السلطان السلجوقي والاستقلال عن سلطته؛ وربما كان ذلك بحكم منصبه الاول كشحنة للعراق – اي كنائب مباشر للسلطان فيه – وبحكم حبه للسلطان واخلاصه لوحدة الدولة السلجوقية ازاء خطر التفتت والانقسام.

خارطة رقم (١) إقليم الجزيرة

كي. لسترج: بلدان الخلافة الشرقية

(١٠٧) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢١٤، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ١١٦/٨–١١٧ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٣٠/٥.

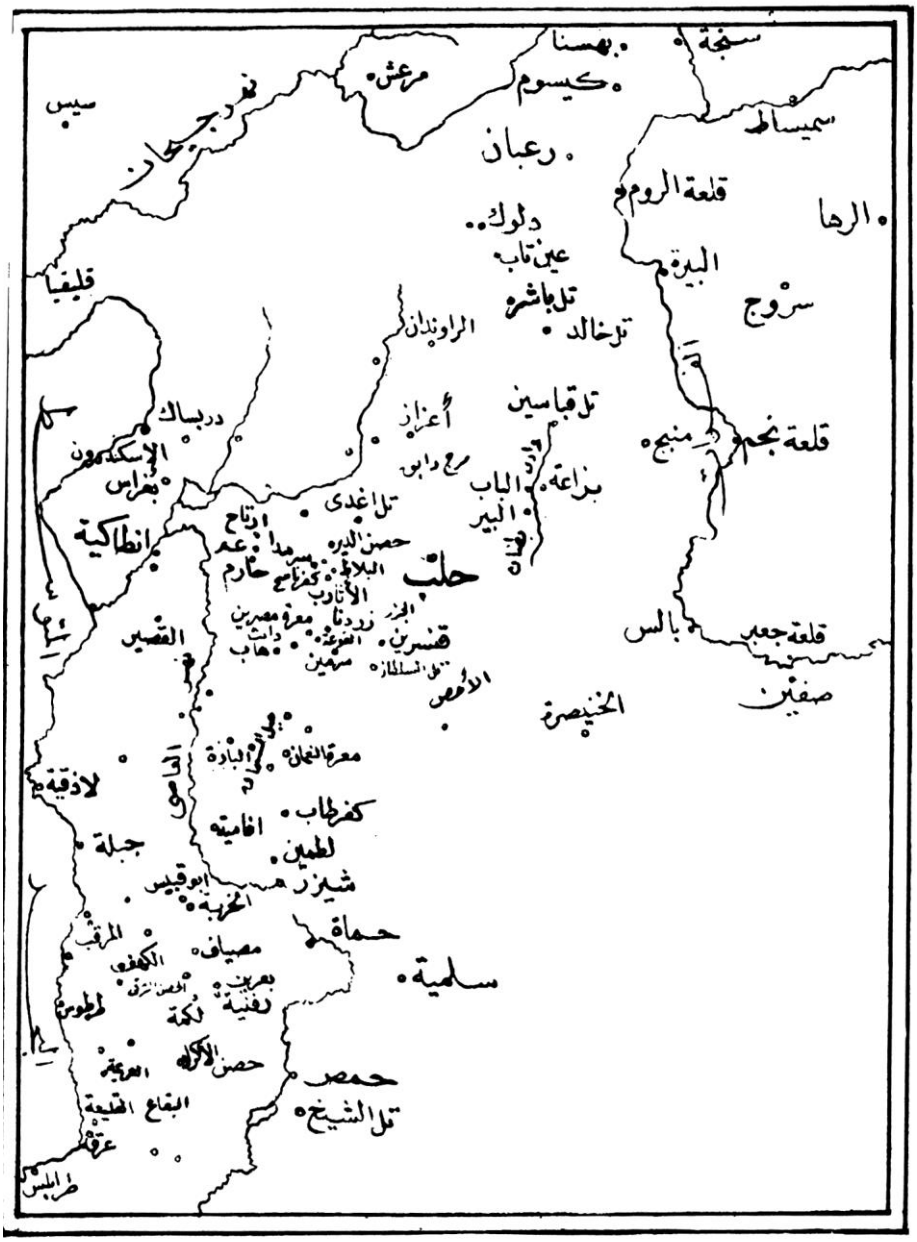

خارطة رقم - ٢ -

سوريا الشمالية

عن: **K. M. Setton, A History of The Crusades. Vol. 1**

عز الدين مسعود بن البرسقي ٥٢٠-٥٢١هـ :

كان عز الدين ينوب عن ابيه في حكم حلب، وعندما ورد خبر اغتيال ابيه ارسل الى السلطان السلجوقي يطلب منه ان يقره على البلاد التي كانت لابيه، فاجابه السلطان وكتب له منشورا بذلك، ومن ثم دخل عز الدين الموصل في مطلع ذي الحجة عام ٥٢٠[١٠٨] ، فاطاعه الامراء والاجناد، وجد في تنظيم شؤون الولاية، وساسها سياسة مرضية، واحسن الى اصحاب ابيه، ثم غادر الموصل لمقابلة السلطان محمود وتاكيد طاعته له، فاحسن هذا اليه واعاده الى الموصل وقد اعتمد عز الدين في ادارة البلاد على الامير جاولي، احد مماليك ابيه الاتراك، الذي كان يتصف هو الاخر بالدراية وحسن السيرة، ومن ثم سارت الامور بانتظام تام ولم يختلف على الوالي الجديد اي من سكان ولايته الواسعة. وقد حاول عز الدين بسياسته هذه اتباع سبيل ابيه، كما انه استفاد من كتابه واجهزته الادارية[١٠٩].

وكان اول ما اهتم به هذا الوالي هو التحقيق في قضية اغتيال ابيه والانتقام من قتلته، فبدأ بالبحث عن الباطنية واستقصاء اخبارهم، فقيل له ان بعضهم كانوا يجلسون الى احد اساكفة الموصل، فاحضر هذا الاسكافي ووعده بالاحسان ان اقر عنهم، ولكنه لم يقر، فهدد بالقتل، وانذاك اعترف بان عددا من الباطنية كانوا قد قدموا الموصل منذ عدة سنين لقتل البرسقي وانهم لم يتمكنوا من تحقيق مهمتهم الا عام (٥٢٠هـ)، فمثل بالاسكافي الى انمات[١١٠]. ولم يكن لهذا التحقيق نتيجة تذكر، اذ ان معظم المشتركين في الاغتيال كانوا قد قتلوا وقتها، وفر الاخرون ولم يبق في الموصل احد منهم.

ولما استتب الامر لعز الدين مسعود في الموصل وقويت شوكته واستقامت امور ولايته تملكه الغرور لحداثة سنه، وحدثته نفسه بمنازلة دمشق وغيرها من بلاد الشام والاستيلاء عليها واغفال جهاد الصليبيين. وكان عز الدين يظن ان قتلة ابيه قوم من اهل حماة، فاضمر للشام واهله شرا عظيما، واعماه الحقد عن سياسته الرشيدة التي بدا بها عهد ولايته. وقد بلغ طغتكين امير دمشق نبا استعداد والي الموصل لمهاجمة بلاده، فعزم على التهيؤ له والتوجه لقتاله لدى اقترابه من الاعمال الشامية. وكان مسعود قد بدأ هجومه بالرحبة وضرب عليها الحصار بعد ان

---

(١٠٨) ابن العديم : زبدة الحلب ٢٣٦/٢-٢٣٨، ابن الاثير : الكامل ٢٤٢/١٠-٢٤٣، الباهر ، ص٣١-٣٢، ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢١٤،٢١٦-٢١٧، ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢١٨/١-٢١٩، ويخطئ ابن كثير البداية والنهاية ١٩٥/١٢ في جعل هذا الحادث سنة ٥١٩هـ.

(١٠٩) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢١٤، ابن الاثير : الكامل ٢٤٢/١٠-٢٤٣، الباهر ، ص٣١-٣٢ أبو شامة : الروضتين ٧٤/١-٧٥.

(١١٠) ابن الاثير : الكامل ٢٤٢/١٠-٢٤٣.

امتنع واليها عن تسليمها ؛ واستمر الحصار اياما اضطر الوالي بعدها إلى التسليم، لولا ان مسعود مات فجأة في الثاني والعشرين من جمادي الاخر عام (٥٢١) على اثر مرض حاد اصابه اثناء الحصار، وربما كان قد سقي سما قضى عليه. وسرعان ما تفرق جنده عنه واستبيحت امواله، وقام جماعة من غلمانه بحمل راياته إلى طغتكين ليتقربوا اليه باهدائها له، فبالغ في اكرامهم واصطفاهم لنفسه(١١١).

أخو عز الدين مسعود الاصغر ٥٢١ :

لدى وصول خبر وفاة عز الدين الى الموصل قام بعض اعيانها بتولية اخيه الاصغر (الذي لم تتطرق المصادر لذكر اسمه)، وقام الامير جاولي بالوصاية عليه وتدبير امور الولاية، وارسل الى السلطان محمود يلتمس تقرير البلاد عليهم والاعتراف الرسمي بالوضع الجديد في الموصل، وشكل وفدا لهذا الغرض برئاسة القاضي بهاء الدين علي بن القاسم الشهرزوري وحاجب صلاح الدين محمد، وامدهما باموال كثيرة للاستعانة بها في هذا السبيل(١١٢).

ونلاحظ هنا ان منصب الوالي في الموصل غدا شبه وراثي فعز الدين مسعود اعقب اباه في حكم الموصل، ولما مات نصب اخوه في محله بالرغم من صغر سنه. ويبدو ان جاولي سعى لاستغلال الود الذي يكنه اهالي الموصل لآل البرسقي، وعمل على تنصيب اخي مسعود لكي يتحكم هو في البلاد باسم الصبي الصغير. ولو لم يتغير مجرى الاحداث بتعيين عماد الدين زنكي على الموصل، اثر الجهود التي بذلها اعضاء الوفد الذي ارسله جاولي الى بغداد، لافتتحت عائلة البرسقي عهدا جديدا في الموصل، ولسبقت – هي – آل زنكي بتاسيس امارة في المنطقة تتمتع باستقلال ذاتي وحكم وراثي.

وهكذا وبتوجه الوفد نحو بغداد واتفاق اعضائه مع عدد من كبار المسؤولين هناك على السعي من اجل تنحية الصبي ووصيه جاولي وتولية الموصل لامير تؤهله امكاناته لهذا المنصب، يكون عهد الولاة في الموصل قد انتهى، وبدات المنطقة تستقبل عهدا جديدا يختلف في كثير من نواحيه عن العهد السابق، سواء في السياسة الخارجية ام في السياسية الداخلية وطبيعة الحكم.

---

(١١١) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢١٦-٢١٧، ابن العديم : زبدة الحلب ٢/٢٣٦-٢٣٨، ابن الاثير : الكامل ١٠/٢٤٤-٢٤٥، الباهر ، ص ٣١-٣٢، ابن خلدون ٥/٥٥، ابن خلكان : وفيات ١/٢١٨-٢١٩.

(١١٢) ابن الاثير : الكامل ١٠/٢٤٥، الباهر ، ص٣٢، أبو شامة : الروضتين ١/٧٤-٧٥، ابن واصل : مفرج الكروب ١/٣١-٣٢، ابن خلدون ٥/٥٥.

القسم الثاني
الولاة والصليبيون
(الجهاد)

منذ الايام الاولى لوصول طلائع القوات الصليبية الى مشارف الجزيرة والشام، بدا ان ولاة الموصل السلاجقة سيلعبون دورا حاسما ازاء الخطر الجديد، نظرا لطبيعة موقعهم الحصين بعيدا عن الاخطار المباشرة للهجوم الصليبي، ولكونهم يمثلون حلقة الوصل المباشرة بين القوى السلجوقية التي يتلقون اوامرهم عنها، وبين الامارات الاسلامية المنتشرة في الجزيرة والشام والتي وقع على عاتقها عبء التصدي للهجوم الجديد. لذا فانه ما ان راى ياغي سيان صاحب انطاكية ان مدينته غدت قاب قوسين او ادنى من الزحف الصليبي حتى كان كربوقا، حاكم الموصل (٤٨٩-٤٩٥) في مقدمة اولئك الامراء الذين بعث يستنجد بهم لايقاف ذلك الزحف قبل ان تحل الكارثة بالمسلمين، ويجد اعداؤهم موطن قدم لهم في بلاد الشام.

ومنذ تلك اللحظة، وحتى ظهور عماد الدين زنكي عام (٥٢١) وتاسيسه امارته الشهيرة في المنطقة، راح ولاة الموصل يدلون بدلوهم في مجرى الصراع العنيف الذي شهدته الجزيرة والشام والذي شبت ناره بين المسلمين والصليبيين. وكان موقف اولئك الولاة يتراوح بين القوة والضعف، استنادا الى الظروف المرحلية التي كان الصراع يجتازها، والى طبيعة العلاقات المتغيرة التي كانت تتحكم في كثير من الاحيان بسياسة الامراء والحكام المسلمين. فكنا نجد بعض ولاة الموصل ياخذون على عاتقهم مهمة قيادة حركة الجهاد، وتجميع القوى الاسلامية لتحقيق هذا الغرض، ونجد بعضهم الاخر يكتفي بعقد محالفات متكافئة مع امراء مسلمين اخرين للعمل المشترك ضد اعدائهم. كما كنا نجد فئة اخرى من الولاة لا يكتفون بالوقوف سلبيين ازاء ما يجري من احداث، بل ان احدهم وهو (جاولي سقاو) سعى للتحالف مع الصليبيين انفسهم من اجل حماية نفسه من غضب السلطان السلجوقي وانصاره، او من اجل تحقيق مكسب شخصي جديد.

وفي كل الاحوال كان ولاة الموصل يمسكون بقلم الاحداث بقوة ليرسموا لها تياراتها ومصائرها فيما عدا تلك السنوات (٥١٣-٥١٨) التي برز في المنطقة خلالها قادة الاراتقة كقوة رائدة في ميدان الجهاد وقد جاء ذلك في الوقت الذي كان بعض ولاة الموصل يجتازون خلاله سلسلة من المناورات والحروب السلجوقية، الامر الذي وضع الموصل في الظل، وعزلها فترة من الزمن عما كان يجري في الاراضي البعيدة عنها من صراع بين المسلمين والصليبيين.

قوام الدولة كربوقا ٤٨٩-٤٩٥هـ = ١٠٩٥-١١٠١م :

ما ان تلقى كربوقا نبا هجوم الصليبيين على انطاكية، واستنجاد صاحبها به، حتى جمع عسكرا عظيما وتوجه صوب الفرات[١١٣] ، دون ان يتمهل لاستئذان السلطان السلجوقي في تحركه الذي قد يجر نتائج حاسمة على الدولة السلجوقية ذاتها. ولقد دلت هذه المبادرة من كربوقا على سعة نظره وادراكه ما لعامل الزمن، وسرعة التحرك، من اثر خطير في مصير اي قتال. لكنه سرعان ما اضاع كسبه هذا عندما توقف اسابيع طوالا عند اسوار الرها في محاولة لاجتياحها، وقد كان بلدوين قائد الحملة الصليبية في الجزيرة، لا يزال في تل باشر، عندما قدمت اليه سفارة من الرها في مستهل السنة الجديدة (١٠٩٨م = ٤٩١هـ) اذ استبد القلق بتوروس الارمني حاكم الرها حول وصول الصليبيين بعد ان شهد تمهلهم على الضفة الغربية لنهر الفرات. كان مركزه دائما بالغ الحرج، اذ ارتاع لما بلغه من انباء حشد كربوقا، امير الموصل المعروف بخطورته وشدته، جيشا ضخما، استعدادا لنجدة انطاكية، وقدرته على ان يمحو في سهولة ويسر، الرها وسائر الامارات الارمنية الواقعة في طريقه. الا ان بلدوين لم يجازف بالذهاب الى الرها الا بالشروط التي تلائمه.. واضطر توروس اخيرا الى اعلان تبنيه للقائد الصليبي واتخاذه وريثا شرعيا وقسيما له في حكم بلاده[١١٤].

لم يغب عن المسلمين عامة، وكربوقا على وجه الخصوص، حقيقة ان امير الرها الصليبي الجديد سرعان ما غدا قوة لا بد من الاهتمام بامرها، لذا اجمعوا على تدميره قبل ان يستفحل خطره. ويتضح مدى عزم المسلمين على تحقيق هذا الهدف في توقف كربوقا عند اسوار ((الرها)) لدى مسيره لنجدة انطاكية، وذلك للتخلص من بلدوين ولم يتخلّ عن هدفه الا بعد ان ظل ثلاثة اسابيع يهاجم اسوار الرها دون جدوى وادى فشله الى ارتفاع مكانة بلدوين وهيبته، كما ان ما اضاعه كربوقا من وقت انقذ الحملة الصليبية الاخرى التي كانت تستهدف انطاكية آنذاك[١١٥].

استانف كربوقا مسيره صوب انطاكية، وما لبث السلاجقة ان اعلنوا عن مساندتهم له ووعدوه بالمساعدة. وفي مرج دابق ((اجتمعت معه عساكر الشام تركها وعربها، سوى من كان

---

(١١٣) ابن العديم : زبدة الحلب ١٣٠/٢-١٣٣، ابن الاثير : الكامل ١٠٢/١٠.

(١١٤) ستيفن رنسمان : تاريخ الحروب الصليبية ٢٨٩/١ (ترجمة : السيد الباز العريني).

(١١٥) المرجع السابق ٢٩٩/١ ، وانظر ابن العديم : زبدة الحلب ١٣٠/٢ حيث نجده يقدم رقما مبالغا فيه لقوات تلك الحملة اذ يقدرها بثلاثمائة وعشرين الف مقاتل. وتتضح هذه المبالغة اذا ما قارنا هذا بالرقم الذي اورده رنسمان عن عدد القوات الاسلامية – نقلا عن المصادر الفرنجية – حيث يقول "والراجح ان جيش كربوقا بلغ عدده نحو ثلاثين الف رجل، غير انه ليس لدينا دليل قاطع. وكان بوسعه ان يبلغ من الكفاية في حصار انطاكية ما لم يبلغه الجيش الصليبي" : تاريخ الحروب الصليبية ٢٨٩/١.

بحلب، فاجتمع معه دقاق حاكم دمشق واتابكه طغتكين وجناح الدولة صاحب حمص وارسلان تاش صاحب سنجار وسليمان بن ارتق احد امراء الاراتقة، وغيرهم من الامراء ممن ليس مثلهم. فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم، وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الاقوات عندهم))[١١٦].

كان الصليبيون انذاك قد احكموا تطويق انطاكية، وازاء ذلك حشد ياغي سيان داخل الحصن كل ما لديه من قوات، وعزز استحكامات المدينة الدفاعية، وشرع في توفير ما يكفيه من المؤن لحصار طويل. ولم يسع الصليبيون، وقد احسوا باحتمال وقوعهم بين شقي الرحى : ياغي سيان من الداخل وكربوقا وحلفاؤه من الخارج، الا ان يعززوا هجومهم بالقيام بنشاط سياسي واسع النطاق استهدف تمزيق وحدة المسلمين وكسب بعض قادتهم، فدخلوا في مفاوضات مباشرة مع الفاطميين حصلوا من خلالها على عدد من النتائج المهمة لصالحهم، بعد ان وعدهم حلفاؤهم الجدد بالعمل سوية من اجل اقتسام بلاد الشام. كما انهم بعثوا الى دقاق امير دمشق يطلبون منه التزام الحياد، واعلموه بانهم لم يتخذوا خططا لمهاجمة بلاده. الا ان دقاقا لم يستجب لرغباتهم نظرا لرجوع اخيه ومنافسه رضوان حاكم حلب الى سابق حياده [١١٧].

ظل ياغي سيان صامدا في انطاكية رغم ما تعرض له من ضغط شديد، وازداد التوتر بين الصليبيين اذ ادركوا انهم ما لم يستولوا، اولا وقبل كل شيء، على المدينة، فسوف يجري تحطيمهم لوقوعهم بين حامية المدينة والجيش الضخم القادم لانقاذها، وبعثوا الى الامبراطور البيزنطي الكسيوس نداءا حارا يلتمسون نجدتهم. واستبد القلق والضيق ببوهمند بصفة خاصة، لحرصه وعزمه على استخلاص انطاكية لنفسه، فاذا ما حدث ووصل الامبراطور قبل سقوطها، او اذا لم يتيسر هزيمة كربوقا الا بمساعدة الامبراطور، صار من المستحيل الامتناع عن رد انطاكية الى الامبراطورية البيزنطية. على ان ما ارتكبه كربوقا من اخطاء في التقدير، هيأ للحملة الصليبية الفرصة للتنفس والراحة. اذ لم يشا كربوقا – كما رأينا – ان يزحف على انطاكية ومن خلفه جيش صليبي في الرها يهدد جناحه الايمن. ولم يدرك ان بلدوين، امير الرها، بلغ من شدة الضعف ان غدا ليس بوسعه القيام بالهجوم، بل اعتقد انه بلغ من القوة في حصنه المنيع مالا يسهل طرده منه. ولم يقرر كربوقا ان مابذله من جهد، وانفقه من وقت، انما ضاع سدى، الا بعد ان امضى الاسابيع الثلاثة الاخيرة امام الرها يحاول عبثا مهاجمة اسوارها. وفي اثناء تلك الاسابيع الثلاثة القيمة امعن بوهمند في العمل، واستطاع ان يوطد صلته باحد القادة داخل مدينة

---

(١١٦) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٠٢، ابن العديم : زبدة الحلب ، ٢/١٣٣، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٥/١٤٧-١٤٨.

(١١٧) رنسمان ١/٣٢٦.

انطاكية واسمه فيروز، وهو ليس الا ارمنيا اعتنق الاسلام وارتقى الى وظيفة عالية في حكومة ياغي سيان. وعلى الرغم من تظاهره بالولاء لسيده فانه كان شديد الحقد والبغضاء له لانه فرض عليه اخيرا غرامة لاختزانه القمح. فاتصل فيروز باخوانه السابقين في الدين (الأرمن) وعن طريقهم وصل الى تفاهم مع بوهمند وافق بمقتضاه على ان يبيع المدينة له. على ان سر الصفقة ظل محفوظا، فلم يبح به بوهمند لاحد، بل انه بدلا من ذلك صار يؤكد علنا ما سوف يواجه الصليبيين من اخطار، كيما يزيد من قيمة انتصاره المقبل[١١٨]!!

أخذت قوات كربوقا تقترب من انطاكية شيئا فشيئا، واخذ الذعر يسود معسكر الصليبيين وصار يتسلل منه عساكر بلغت من كثرة العدد ان غدا من العبث محاولة منعهم. وكان بضمنهم ستيفن بلوا قائد جماعة كبيرة من عساكر شمال فرنسا الا ان مؤامرة فيروز ما لبثت ان اتت اكلها وانثالت قوات الصليبيين – وفق خطة متفق عليها – الى داخل المدينة حيث ساعدهم المسيحيون والارمن المحليون وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين، واضطر ياغي سيان الى الفرار حيث قتله احد الارمن اثناء سقوطه عن فرسه في احدى المرتفعات، اما ابنه شمس الدولة فقد لجا الى القلعة واعتصم بها. ولم يفلح الهجوم الذي شنه بوهمند على القلعة، واعقبه بما هو اسهل، حيث راح وقواته ينهبون شوارع المدينة ويستبيحونها. ولم تحل ليلة الثالث من حزيران عام (١٠٩٨م = ٤٩١هـ) حتى لم يبق في انطاكية من الترك احد من الاحياء يجرؤ على الظهور.. وعادت انطاكية مسيحية مرة اخرى. وما ان وصل الى البلاد المجاورة خبر الفوضى والخراب اللذين حلا بانطاكية اثر دخول الصليبيين حتى هرب المسلمون منها وتسلمها الارمن[١١٩].

ما ان علم كربوقا وحلفاؤه بنبا استيلاء الصليبيين على انطاكية حتى غادروا مواقعهم في مرج دابق واتجهوا الى ارتاح على طريق انطاكية، وانطلق بعضهم الى جسر الحديد، شمال شرقي انطاكية وقتلوا من كان معسكرا فيه من الصليبيين. وما لبثت القوات الاسلامية ان عسكرت قريبا من اسوار انطاكية في السادس من رجب، فانسحب من كان مقيما بظاهر البلد من الصليبيين الى الداخل، واكتشف المسلمون ان القلعة لا زالت مستعصية على الغزاة[١٢٠].

جابه الصليبيون اثر دخولهم المدينة مشاكل عدة اهمها : لمن تكون انطاكية ؟ ولكنهم لم يكن لديهم اول الامر وقت لمناقشة ذلك، اذ كان كربوقا يزحف بجيوشه، ولا بد من الدفاع عن المدينة ازاء الهجوم الحادث. ومهما وضع بوهمند من خطط فالواقع انه لم يتوافر له من العساكر

---

(١١٨) المرجع السابق ٣٢٧/١–٣٢٩، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص١٣٥، ابن العديم: زبدة الحلب ١٣٣/٢–١٣٥.

(١١٩) رنسمان ٣٢٩/١–٣٣٤ ، R. Grousset: Histoire des Croisades 1\96-98 ابن القلانسي: المصدر السابق ، ص١٣٥، ابن كثير : البداية والنهاية ١٥٦/١٢.

(١٢٠) ابن العديم : زبدة ١٣٦/٢ ، Grousset: Op cit , V 96\9

ما يكفي لحراسة الاسوار، الا بمساعدة رفاقه، فالتزم كل واحد منهم بالدفاع عن قطاع من الاستحكامات. والواضح ان الصليبيين استطاعوا ان يستقروا في المدينة قبيل قدوم كربوقا. وما ان القى هذا القائد رحاله عند الاسوار حتى بادر شمس الدولة بن ياغي سيان بان بعث اليه من القلعة يطلب منه المساعدة. غير ان كربوقا اصر على انه لابد لعساكره ان يحوزوا القلعة. والتمس منه شمس الدولة ان يحتفظ بالقيادة حتى يتم استرداد المدينة، غير ان توسلاته ضاعت سدى، فلم يسعه الا ان يسلم الحصن وكل مخازنه الى نائب كربوقا الامين احمد بن مروان(١٢١).

ما لبث المسلمون ان بدأوا القتال بان شنوا هجوما على البلد من ناحية القلعة، استهدف كربوقا من ورائه النفاذ الى البلد عن طريق القلعة. وقاتل المسلمون الصليبيين ((الذين اشرفوا على التلف)) الامر الذي دفعهم الى بناء سور لمنع اتصال القلعة باستحكامات المدينة، وصد محاولات المسلمين لاستغلال نقطة الضعف هذه والتسرب الى المدينة(١٢٢). وما لبث احمد بن مروان ان قام باختبار هذا القطاع وبادر بتوجيه هجومه عليه في التاسع من حزيران، وكاد يتغلب على الصليبيين، غير انهم استطاعوا اخر الامر ان يردوه على اعقابه وان يكبدوه خسائر فادحة، على ان كربوقا قرر اثر ذلك ان من دواعي الاقتصاد في النفقات ان يضيق الخناق على اعدائه ويشتد في حصارهم ثم يوجه اليهم ضربته حين يضعفهم الجوع. ومن ثم تحرك في العاشر من حزيران حتى يتم تطويق المدينة، وحاول الصليبيون ان يمنعوه من ذلك فقاموا بهجوم عنيف ضده، غير انهم لم يلبثوا ان ارتدوا واحتموا بالاسوار(١٢٣).

استبد بالصليبيين القنوط والياس، بعد ان فشلت جهودهم، فالروح المعنوية التي ارتفعت منذ اسبوع بالاستيلاء على المدينة لم تلبث ان هوت الى احط درك. اخذ الطعام ينفد من جديد، وغلت الاسعار غلاءا فاحشا، واضطر الجند الى أكل الميتات(١٢٤) .. وظن عدد كبير من الفرسان ان ستيفن بلوا، القائد الفرنسي، لم يتخذ بقراره الا احسن السبل واسلمها، فتسللوا الى البحر هم الاخرون. ولم يبق امام الصليبيين الا فرصة قدوم الامبراطور البيزنطي الكسيوس على راس قواته.. واعتقد هذا انه اذا ما استولى الترك على انطاكية، وهلك الصليبيون، فمن المحقق ان الترك سوف يمضون في الهجوم، ولا شك ان السلاجقة سوف يحاولون استرداد ما فقدوه من الاراضي، وسوف يساندهم كل العالم التركي المظفر من ورائهم. على انه لسبب – لا زال غير

---

(١٢١) رنسمان ٣٣٦/١–٣٣٧، ابن العديم : زبدة ١٣٦/٢–١٣٧.

(١٢٢) ابن العديم : زبدة ١٣٦/٢–١٣٧، رنسمان ٣٣٧/١.

(١٢٣) رنسمان ٣٣٨/١–٣٣٩.

(١٢٤) المرجع السابق ٣٣٨/١–٣٣٩، ابن العديم : زبدة ١٣٦/٢–١٣٧، ابن الاثير : الكامل ١٠٣/١٠.

معروف – لم يفكر الكسيوس في ان تمتد مواصلاته الى ابعد من قلب الاناضول، وقفل عائدا الى الشمال مكتفيا بما استولى عليه من أراضي الترك هناك[١٢٥].

واصل كربوقا – خلال ذلك – ضغطه على انطاكية، وقام في الثاني عشر من حزيران بهجوم مفاجيء كاد يجعله يستولي على احد الحصنين المقامين على السور الواقع جهة الجنوب الغربي من المدينة، ولم يحفظ هذا الحصن الا بسالة ثلاثة من فرسانه. وكيما يتجنب بوهمند تجدد هذه الاخطار امر باشعال الحريق في كل ما يقع بالقرب من السور، من شوارع المدينة، حتى يتهيا لعساكره بذلك ان تقوم بتحركاتها ومناوراتها في يسر وسهولة بالغة[١٢٦].

ما لبثت اسطورة الحربة المقدسة ان راجت في معسكرات الصليبيين، فرفعت من روحهم المعنوية في وقت كانوا فيه على وشك الاستسلام للياس الكامل. فقد ادعى بطرس بارثولوميو، احد الخدام الذين قدموا مع الحملة الصليبية، انه شاهد حلما عن موضع الحربة التي اخترقت جنب المسيح (عليه السلام) وقصها على الامراء الصليبيين ففتشوا عنها ووجدوها في ذات المكان الذي كان قد وضعها بطرس نفسه فيه !! يقول ابن الاثير ((وكان مع الفرنج راهب مطاع فيهم، وكان داهية من الرجال، فقال لهم : ان المسيح (عليه السلام) كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بانطاكية وهو بناء عظيم، فان وجدتموها فانكم تظفرون، وان لم تجدوها فالهلاك محقق. وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفا على اثرها وامرهم بالصوم والتوبة، ففعلوا ذلك ثلاثة ايام. فلما كان اليوم الرابع ادخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم وحفروا في جميع الاماكن، فوجدوها كما ذكر، فقال لهم ابشروا بالظفر، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين))[١٢٧]. ومن ثم اعلن بوهمند ان الخطة الوحيدة امام الصليبيين هي انه لابد لهم من القيام بهجوم شامل على معسكر كربوقا. وبينما ازداد الصليبيون معنوية وتماسكا واملا، اخذ حلف كربوقا يتعرض لتمزق خطير بسبب عدم مرونته من جهة، والاحقاد الشخصية التي تناوشت حلفاءه، وما رافقها من شكوك، من جهة اخرى.

فعندما كانت رسل رضوان امير حلب تترى على كربوقا، امتلأ قلب اخيه وغريمه دقاق غيظا، وتوهم ان هذه الاتصالات تستهدفه شخصيا، فضلا عن انه كان يحرص على مغادرة انطاكية والعودة الى الجنوب بسبب اعتداء الفاطميين على فلسطين. وكان هناك عداء اسريا

---

(١٢٥) رنسمان ٣٣٨/١–٣٤١ (ربما كان ارتداد الامبراطور يعود إلى تخوفه من هزيمة الفرنج ووقوفه وجها لوجه امام قوات الاتراك : المصدر نفسه ، هامش ٣٤١/١،١).

(١٢٦) رنسمان ٣٤٢/١–٣٤٣.

(١٢٧) ابن الاثير : الكامل ١٠٣/١٠، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص١٩٦–١٩٧ وانظر التفاصيل الدقيقة لقصة الحرب المقدسة في : رنسمان ٣٤٣/١–٣٤٨. وانظر مناقشة هذا الادعاء وتفنيده : نفس المرجع ٣٤٩/١.

مستحكما بين اميري حمص ومنبج، استحال معه حدوث اي تعاون او تنسيق بين قواتهما. وحدثت منافرات بين الترك وبين العرب التابعين للامير العربي وثاب بن محمود، انسحبوا على اثرها، كما تفرق كثير من الترك بتحريض من رضوان[١٢٨]. ((وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين، واغضب الامراء وتكبر عليهم ظنا منه انهم يقيمون معه على هذه الحال، فاغضبهم ذلك واضمروا له في انفسهم الغدر اذا كان القتال، وعزموا على اسلامه عند المصدوقة))[١٢٩]. واذا كنا نستطيع التماس بعض الاعذار لتصرفات كربوقا الذي سعى الى استغلال سلطته واستخدام اساليب الشدة من اجل تماسك حلفه، الا اننا لا يمكن ان نجد اي عذر لتصرفات سائر حلفائه من الامراء الذين نسوا هدفهم المشترك، ولم تكن تهمهم في تلك الساعات الحرجة سوى مصالحهم الخاصة وشفاء احقادهم المتاصلة.

لم تكن متاعب كربوقا مجهولة لدى قادة الصليبيين الذين حاولوا ان يحملوه على التخلي عن الحصار. فانفذوا الى معسكره في اواخر حزيران سفارة مؤلفة من بطرس الناسك وفرنجي يدعى هيرلوين يجيد الحديث باللغتين العربية والفارسية. ولا نعلم شيئا عن الشروط التي كلف بطرس بعرضها، اذ ان ما اجراه المؤرخون المتاخرون من الاحاديث على لسان بطرس وكربوقا يعتبر من نسيج الخيال. ولعل من الاقتراحات ما اورده اولئك من انه قد يحسم الموقف القيام بسلسلة من المبارزات الفردية الا ان كربوقا ظل مصرا على وجوب استسلام الصليبيين دون قيد او شرط، على الرغم من تزايد ضعف جيشه[١٣٠] ، وقال للسفراء ((لا تخرجون الا بالسيف))[١٣١]. وهكذا خسر كربوقا هذه الفرصة الثمينة، وعادت السفارة دون ان تتوصل الى شيء. غير انه في اثناء قيامها بمهمتها وقف هيرلوين، فيما يبدو، على معلومات بالغة الاهمية عن مجرى الامور في المعسكر التركي. واذ فشلت السفارة غدا لا بد من القتال. وفي الصباح الباكر من يوم الاثنين، الثامن والعشرين من حزيران، عبأ بوهمند قواته للقتال حيث قسمهم الى ستة جيوش، وللمحافظة على القلعة ومراقبتها تقرر ابقاء مائتي عسكري بالمدينة يتولى قيادتهم ريموند من فراش مرضه[١٣٢].

ما ان بدأ الصليبيون يتسللون فرادى الى خارج اسوار انطاكية، على مرأى من قوات المسلمين حتى تقدم القائد العربي وثاب بن محمود وعدد من قادة المسلمين الى كربوقا وقالوا له: ((ينبغي ان تقف على الباب فتقتل كل من يخرج، فان امرهم الان وهم متفرقون سهل)) فاجابهم

---

(١٢٨) ابن العديم : زبدق ١٣٦/٢-١٣٧، رنسمان ٣٥٠/١، Grousset: op. cit, 1/104-6

(١٢٩) ابن الاثير : الكامل ١٠٢/١٠.

(١٣٠) رنسمان ٣٥١/١.

(١٣١) ابن الاثير : الكامل ١٠٣/١٠.

(١٣٢) رنسمان ٣٥١/١-٣٥٢.

قائلا : ((لا تفعلوا، امهلوهم حتى يتكامل خروجهم، فنقتلهم))، ومن ثم اصدر امرا يمنع فيه قواته من معاجلتهم، وعندما قام جماعة من قواته بقتل بعض الخارجين من الفرنج، جاء اليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم، معتقدا ان بامكان المسلمين انزال ضربة ساحقة باعدائهم في اللحظة التي يتم فيها خروجهم من انطاكية(١٣٣) ، فضلا عن انه خشي، اذا ما اسرع بقتالهم، ان لا يتمكن سوى من سحق مقدمتهم، اما اذا انتظر فانه سوف يتخلص بضربة واحدة من كل القوات الصليبية، وتبين له من سلوك عساكره انه سوف لا يتحمل استمرار الحصار المرهق زمنا طويلا. على انه حينما شاهد الصليبيين في كامل عدتهم، اخذ يتردد، وبعث اليهم من قبله رسولا، بعد فوات الاوان، يعرض عليهم انه على استعداد لان يناقش معهم شروط الهدنة، غير ان اعداءه تجاهلوا رسوله ومضوا في تقدمهم(١٣٤).

ما ان تم خروج القوات الصليبية ووقوفها ازاء جيوش كربوقا حتى لجا هذا الى اتخاذ ما درج عليه الترك من خطط حربية، وذلك بالتظاهر بالانسحاب، واستدراج العدو الى ارض بالغة الوعورة حيث قذف رماته صفوف العدو بوابل من السهام. وفي تلك الاثناء بعث بفصيلة من جيشه كي تحيط بقواتهم من ناحية اليسار حيث لم يكن النهر ليحميهم. غير ان بوهمند استعد لذلك فالف جيشا سابعا لوقف هذا الهجوم(١٣٥).

اشتد القتال في الجبهة الرئيسية، ولم يستطع الرماة الترك وقف زحف الصليبيين، واخذت صفوف الترك تضطرب، وامعن الصليبيون في الضغط عليهم ومضوا في زحفهم. وزاد في مساعدتهم ما قرره كثير من امراء كربوقا من التخلي عنه، اذ انهم خافوا انه اذا ما احرز النصر

---

(١٣٣) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٠٣، ابن العديم : ٢/١٣٦-١٣٧.

(١٣٤) رنسمان ١/٣٥٢-٣٥٣.

(١٣٥) هذا ما تؤكده المصادر الفرنجية التي نقل عنها (رنسمان المرجع السابق ١/٣٥٣) وهو المرجّح اعتمادا على سوابق ولواحق هذه الخطة التي كثيراً ما كان الاتراك يعتمدونها في قتالهم . اما ابن العديم فيشير إلى ان ذلك الانسحاب السريع لقوات كربوقا لم يكن الا هزيمة توهمها الفرنج مكيدة فكفوا عن مطاردة المسلمين. يقول : انهزم عسكر كربوقا بعد ان عاث التركمان فيه ، وتوهم الفرنج ان ذلك مكيدة فتوقفوا عن تبعهم فكان ذلك سببا لسلامة من اراد الله سلامته (زبدة ٢/١٣٦-١٣٧) ويذهب ابن الاثير إلى ما ذهب اليه ابن العديم ، مع اعطاء المزيد من التفاصيل عن اسباب هذه الهزيمة ، فيقول "لما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بانطاكية احد منهم ، ضربوا مصافا عظيما فولى المسلمون منهزمين ، لما عاملهم به كربوقا من الاستهانة بهم والاعراض عنهم ، ومنعهم من قتل الفرنج. وتمت الهزيمة عليهم ، ولم يضرب احد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم . واخر من انهزم سقمان وجناح الدولة لانهما كانا في الكمين ، وانهزم كربوقا معهم ، فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة ، اذ لم يجر قتال ينهزم من مثله ، واخافوا ان يتبعوهم. وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلبا للشهادة ، فقتل الفرنج منهم الوفا" (الكامل ١٠/ ١٠٣).

فسوف يصير له من القوة ما سوف يجعلهم اول من يدفع الثمن باهظا. فاخذ جند دقاق امير دمشق يغادرون ساحة القتال، وترتب على ذلك ان ساد الذعر بين قوات المسلمين، فاشعل كربوقا النيران في الحشائش الجافة امام صفوف عساكره كيما يعوق سير الفرنج، دون جدوى، وراح في الوقت نفسه يسعى الى اشاعة الامن في صفوف قواته. ولم يبق مواليا له الا سقمان بن ارتق واامير حمص. حتى اذا فرا، ادرك ان المعركة خاسرة وانصرف عن القتال. وتداعى كل الجيش التركي ووقع فريسة الفوضى والخوف. واذ اتبع الصليبيون النصيحة التي بذلها احد قادتهم بالا تشغلهم عملية نهب معسكر العدو، اخذوا يطاردون الفارين حتى بلغوا جسر الحديد فقتلوا عددا كبيرا منهم. اما اولئك الذين التمسوا ملاذا في قلعة انطاكية فجرى تطويقهم، ولم يلبثوا ان هلكوا. ولقي كثير من الباقين مصرعهم، اثناء فرارهم، على ايدي السريان والارمن المحليين في الريف ... ووصل كربوقا الى الموصل في فلول جيشه، مارا بحلب حيث حمل له صاحبها رضوان خياما وطعاما، وضاع الى الابد ما كان له من سلطة ومكانة[١٣٦].

أما احمد بن مروان نائب كربوقا في قلعة انطاكية فقد فاوض الصليبيين واعلن استسلامه لهم، حيث سمح له ولحاميته مغادرة المكان في الثاني من شعبان دون التعرض لأذى[١٣٧] ، وتحول جماعة من اصحابه، وبضمنهم احمد نفسه، الى المسيحية وانحازوا الى جيش بوهمند. وهكذا قرر انتصار الصليبيين الحاسم على كربوقا انه لا بد ان تبقى انطاكية في حوزة المسيحيين، غير انه لم يقرر ايا منهم تنتقل الى حوزته : الفرنج ام الامبراطور البيزنطي[١٣٨].

يبدو لنا، بعد استعراض تفاصيل الدور الذي لعبه كربوقا في مجابهة الهجوم الصليبي على المعاقل الاسلامية الاولى، انه بذل ما في وسعه للتصدي لهذا الخطر قبل ان يتمكن من تثبيت اقدامه في الارض الاسلامية ؛ فلم يال جهدا في تهيئة كافة العوامل العسكرية : الزمنية والبشرية والفنية، من اجل تحقيق هدفه ذاك. الا ان ظروفا شديدة التعقيد، اسهم هو – باخطائه السياسية والعسكرية – في تشكيل بعضها، واسهم امراؤه وحلفاؤه – بحرصهم على مكاسبهم الاقليمية، وتغلغل الحقد والتنافس الشخصي بينهم – في تشكيل معظمها ؛ هذه الظروف هي التي احبطت محاولة كربوقا، وانتهت بها الى هذا المصير المفجع الذي كان له تأثيراته السيئة ونتائجه الخطيرة على مستقبل الحرب الصليبية بشكل عام.

---

(١٣٦) رنسمان ٣٥٣/١–٣٥٤ ، Grousset: Op. Cit, 1\106-9 ابن العديم : زبدة ١٣٦/٢–١٣٨، ابن الاثير : الكامل ١٠٣/١٠، ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٣٦.

(١٣٧) رنسمان ٣٥٤/١، ابن العديم : زبدة ١٣٧/٢–١٣٨.

(١٣٨) رنسمان ٣٥٤/١.

فلقد استطاع الصليبيون، اثر هزيمة كربوقا، ان يثبتوا اقدامهم في بلاد الشام، كما كانوا قد ثبتوها قبيل ذلك في منطقة الجزيرة عن طريق الرها، وان يتخذوا من انطاكية – امارتهم الثانية – قاعدة للانطلاق الى الجنوب، وفرض سيطرتهم على المواقع القائمة على الطريق الى القدس. وليس استيلاء الصليبيين على القدس، وانزالهم باهليها تلك المذبحة الرهيبة التي ذهب ضحيتها سبعون الفا من السكان المجردين عن السلاح، سوى نتيجة مباشرة للهزيمة التي مني بها المسلمون عند اسوار انطاكية. ذلك ان هزيمة كهذه، لم تعط الصليبيين فرصة التماسك والانطلاق ثانية الى اهدافهم فحسب، بل انها اصابت وحدة القوى الاسلامية في المنطقة بضربة قاصمة، فمزقتها وشلتها عن العمل المشترك المنسق فترة من الزمن، كان الصليبيون يجتاحون – خلالها – القرى والمدن والحصون، بينما كان قادة المسلمين يجترون احقادهم ويسعون للحفاظ على اقاليمهم فحسب، في الوقت الذي كان المسلمون فيه قد شدهوا للانتصارات الصليبية المتلاحقة، تلك التي لم تجد، بعد هزيمة كربوقا، اية محاولة جادة لصدها عن المضي صوب هدفها المرسوم.

والحق ان اخطر ما ترتب على هزيمة المسلمين عند انطاكية هو الشلل الذي اصاب سياسة كربوقا وموقفه ازاء الخطر الصليبي الزاحف. فلقد اصابته تلك الهزيمة، بما حدث فيها من بوادر السلبية والانهزام لدى عدد من امرائه، والخيانة المكشوفة لدى عدد اخر، برد فعل شديد صده عن التفكير الجاد في القيام باية محاولة جديدة لتزعم القوى الاسلامية في المنطقة، والتصدي للزحف الصليبي السريع صوب الشرق والجنوب. الا ان هذه النتائج السلبية جميعا لن تصدنا عن محاولة تلمس ردود الفعل الايجابية التي تمخضت عن هزيمة انطاكية، وما اعقبها من انتصارات صليبية، احدثت هزة عنيفة في ضمائر مسلمي المنطقة ونفوسهم، وعمقت وعيهم السياسي، وحركتهم لمطالبة جماعية من القوى الاسلامية الحاكمة ان تتخذ تدابير سريعة لوقف الهجوم الصليبي، الامر الذي دفع السلاجقة، بعد سلسلة من الضغوط والاضطرابات العامة والمظاهرات الحاشدة[١٣٩] ، الى توجيه اهتمامهم صوب تلك الساحة، ومن ثم اتيح لولاة الموصل، الذين اعقبوا كربوقا، ان يتولوا – ثانية – زمام المبادرة وان يدخلوا، كقادة وحلفاء مع سائر المنطقة، في معارك متتالية مع الصليبيين، وان يحققوا خلال صراعهم ذاك انتصارات بالغة الاهمية، مكنت العالم الاسلامي من ان يقف على قدميه ثانية، وان يتحول من مراكز الدفاع الى

(١٣٩) انظر على سبيل المثال : ابن الجوزي : المنتظم ١٠٥/٩، ١٠٨، ١٦٥، ابن كثير : البداية والنهاية ١٥٦/١٢، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٥٠/٥-١٥١، ١٥٢، ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٧٣-١٧٤.

الهجوم، كما فتحت الطريق امام ظهور قيادات اشد حنكة ودراية وتمكنا، اخذت على عاتقها، فيما بعد، السعي الدائب المنظم من اجل طرد الغزاة وارغامهم على العودة ثانية من حيث جاءوا.

شمس الدولة جكرمش ٤٩٥-٥٠٠هـ = ١١٠١-١١٠٦م :

كانت اولى تلك المبادرات، ما حدث عام (٤٩٧هـ-١١٠٣م) من قيام جكرمش، الذي اعقب كربوقا في حكم الموصل منذ عام (٤٩٥)، بعقد تحالف مع سقمان بن ارتق امير الاراتقة في ديار بكر، استهدف التصدي لتقدم الصليبيين شرقا باتجاه قلب الجزيرة. اذ كان للانتصارات السريعة التي احرزها الصليبيون، واعتزامهم الاستيلاء على حران الواقعة على مفرق الطرق الى العراق والجزيرة والشام، مستغلين فرصة الصراع بين الامراء المسلمين[١٤٠]، فضلا عما يعنيه الاستيلاء على حران من قطع الصلة بين المسلمين في بلاد فارس والعراق والشام، واعطاء الصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل، وتامين الرها، والسيطرة على اقليم الجزيرة، كان لهذه العوامل جميعا الاثر الحاسم في تناسي كل من جكرمش وسقمان خلافاتهما القديمة، والعمل سوية لايقاف تقدم الصليبيين. حيث ارسل كل منهما الى صاحبه يدعوه الى الاجتماع لتلافي امر حران ((ويعلمه انه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه)) !! فاجاب كل منهما صاحبه، واجتمعا على الخابور عند راس العين حيث عززا تحالفهما وتوجها على راس عشرة الاف فارس من الترك والعرب والاكراد[١٤١] لمنازلة الرها قبل ان يتعرضا للهجوم. وعندما سمع بلدوين الثاني امير الرها نبأ احتشادهم في رأس العين ارسل الى جوسلين وبوهمند يستنجد بهما، واقترح عليهما ان يحولا وجهة الهجوم بان يقوما بمحاولة لمنازلة حران. وبعد ان ابقى بلدوين حامية صغيرة في الرها اتخذ طريقه الى حران على راس جماعة صغيرة من الفرسان والارمن، وانحاز اليه بالقرب من حران كل من جوسلين اميرتل باشر وبوهمند امير انطاكية وابن اخته تانكرد، وبطريرك انطاكية، وجيش ضم فرسان الصليبيين وامراءهم وعددا كبيرا من الارمن ورجال الدين، بلغ عدده نحو ثلاثة الاف فارس، ونحو ثلاثة امثال هذا العدد من الرجالة. والواقع ان هذا الجيش يمثل القوة الضاربة

---

(١٤٠) H. S. Finck: The Foundation fo the Latin States, in: Setton: A History of the Crusades 1/389.

(١٤١) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٣٩-١٤٠. ويلاحظ ان المصادر الصليبية قدرت عدد قوات المسلمين بثلاثين الف رجل ، وهو رقم مبالغ فيه ربما قصد فيه تبرير الهزيمة التي حلت بالجيوش الصليبية : سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية (حاشية ١ ، جزء ١ ، ص٤٠٤) وانظر:
Albert d' Aix, (Hist. Occid, Iv, p. 615.

الكاملة لدي صليبيي شمالي الشام، عدا حاميات الحصون. وعندما احتشد هذا الجيش امام حران كان جكرمش وحليفه لا يزالان يزحفان نحو ((الرها))[١٤٢].

كاد الصليبيون ان يستولوا على حران، بعد وقت قصير من فرض الحصار عليها، الا ان الخلاف الذي نشب بين بلدوين لي بور وبوهمند، واصرار كل منهما على رفع رايته على المدينة بعد الاستيلاء عليها، ساعد على صمود حران، واتاح للمسلمين فرصة التحرك لقتال الصليبيين قبل سقوط هذا الموقع بايديهم. وتم اللقاء بين الطرفين على نهر البليخ في التاسع من شعبان، حيث اظهر المسلمون الهزيمة، فتبعهم الصليبيون نحوا من فرسخين، فاعاد المسلمون الكرة عليهم وابادوا معظم قواتهم[١٤٣] وغنموا مقادير كبيرة من الاموال والممتلكات[١٤٤] وكان بوهمند امير انطاكية وابن اخته تانكرد، قد كمنا خلف احدى المرتفعات لينقضا على المسلمين من مؤخرتهم حين يشتد القتال، فلما خرجا شاهدا هزيمة رفاقهم ونهب معسكراتهم، فاقاما في اماكنهما الى الليل، ومن ثم تسللا هاربين، فتبعهما المسلمون وقتلوا واسروا من اصحابهما عددا كبيرا، بينما تمكنا هما من الفرار الى الرها. اما بلدوين وجوسلين فقد تم اسرهما. وكان بلدوين قد انهزم مع جماعة من قواده وخاضوا نهر البليخ، الا ان الاوحال اعاقت تحركهم السريع، فلحقهم قائد تركماني من اصحاب سقمان وتمكن من اسرهم حيث حمل بلدوين الى سيده سقمان. وعندما راى اصحاب جكرمش ان قوات سقمان قد استولت على حصة الاسد من غنائم الصليبيين قالوا لسيدهم ((اي منزلة تكون لنا عند الناس وعند التركمان، اذا انصرفوا بالغنائم دوننا؟)) وحسنوا له اختطاف بلدوين، فارسل جكرمش بعض اصحابه حيث تمكنوا من اختطاف الامير الصليبي من معسكر سقمان. فلما علم هذا بما حدث، وكان خلال ذلك غائبا عن مقره، شق عليه الامر، وتهيا اصحابه للقتال، الا انه ما لبث ان ردهم وقال لهم : ((لا أوثر شفاء غيظي بشماتة الاعداء بالمسلمين))!![١٤٥] ومن ثم تقدم على رأس قواته، واخذ سلاح الصليبيين ورايتهم، والبس اصحابه

---

(١٤٢) رنسمان ٢/٧١-٧٢.

(١٤٣) يشير ابن الاثير (الكامل ١٠/١٤٠) الى ان عدد قتلى الفرنج بلغ ما يقارب الاثني عشر الفا. ولا ريب ان هذا الرقم مبالغ فيه ، بعد ان رأينا أن عدد قوات الصليبيين جميعا – في هذه المعركة – لم يجاوز هذا العدد.

(١٤٤) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٤٣، ابن الاثير : الكامل ١٠/١٣٩-١٤٠، ابن العديم : زبدة ٢/١٤٨-١٤٩، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (مخطوطة) ورقة ١٦ب -١٧آ ، ابو الفدا: المختصر في اخبار البشر ٢/٢٢٧-٢٢٨، ابن خلدون: تاريخ ٥/٦٩-٧٠، ٣٩٨-٣٩٩، ٤٦٥-٤٦٦، ابن تغري بردي : النجوم ٥/١٨٨، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٩/٨ ، السيد الباز العريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ١/٣٨٥، رنسمان ٢،٧١-٧٤.

(١٤٥) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٣٩-١٤٠.

ملابسهم واركبهم خيلهم وجعل ياتي حصون اقليم شبختان من ديار بكر، فيخرج الصليبيون منها، ظنا منهم ان اصحابهم قد انتصروا فيجابههم سقمان ويقضي عليهم ويقتحم حصونهم، وتمكن بذلك من وضع يده على عدد من حصون المنطقة، وقفل عائدا الى مقر امارته في ديار بكر[١٤٦].

قرر جكرمش المضي في القتال بعد عودة حليفه، وقام باقتحام قلاع الصليبيين في اقليم شبختان الممتد الى شرق الرها، ليحمي مؤخرته، ومن ثم واصل السير الى الرها نفسها. واذ ادى تمهل الصليبيين من قبل، الى الابقاء على حران بايدي المسلمين، فقد ابقى الرها للمسيحيين ما حدث من تمهل المسلين. اذ توفر لتانكرد من الوقت ما يكفي لاصلاح وسائل الدفاع، وبذا استطاع ان يرد اول هجوم قام به جكرمش ويرجع ذلك الى حد كبير الى ما اظهره الارمن المحليون من الولاء والبسالة. غير ان ما احس به تانكرد من ضغط شديد، حمله على المبادرة بالاستنجاد بيوهمند، ومع ان هذا كان يواجه مشاكل عديدة، الا انه راى الا بد من جعل الاسبقية لدرء الخطر عن الرها، فنهض لمساندة ابن اخته، غير انه عطله ما كانت عليه الطرق من احوال سيئة. واستبد الياس بتانكرد فامر رجال الحامية بان يتخذوا اماكنهم للهجوم قبل بزوغ الفجر. وتحت جنح الظلام انقض رجاله على الاتراك الذين استغرقوا في نومهم مطمئنين، واكتمل الانتصار الصليبي بوصول بوهمند، فهرب جكرمش مذعورا، وخلف من ورائه معسكره الزاخر بالثروة، فانتقم الفرنج بذلك من هزيمة حران، وتم احتفاظهم بالرها[١٤٧].

كان من بين الاسرى الذين وقعوا في يدي تانكرد اميرة سلجوقية من عقائل بيت جكرمش الذي بلغ من تقديره لهذه السيدة انه بادر لافتدائها مقابل مبلغ كبير من المال (١٥ ألف بيزنت) او مبادلتها بالكونت بلدوين نفسه. وبلغت بيت المقدس انباء هذا العرض، فاسرع الملك بلدوين بالكتابة الى بوهمند بالا يجعل هذه الفرصة تفلت حتى يتم اطلاق سراح بلدوين. غير ان بوهمند وتانكرد احتاجا الى المال، على حين ان عودة بلدوين سوف تخرج تانكرد من وظيفته الحالية – كمسؤول عن الرها – ليعود الى انطاكية. ولذا ردا على رسالة الملك انه ليس من الدبلوماسية في شيء ان يظهرا لهفتهما الشديدة على قبول العرض، على حين انهما اذا ترددا في القبول، ربما لجأ جكرمش الى زيادة الفدية. غير انه في تلك الاثناء تم اتفاقهما مع جكرمش على قبول عرضه النقدي، وبذا بقي بلدوين في الاسر[١٤٨].

---

(١٤٦) الكامل ١٠/١٣٩–١٤٠ ، ابن خلدون تاريخ ٥/٦٩–٧٠، ٣٩٨–٣٩٩

(١٤٧) رنسمان ٢/٧٦.

(١٤٨) المرجع السابق ٢/٧٦–٧٧.

تمخضت معركة (حران) (او البليخ) عن نتائج على مستوى كبير من الاهمية، فقد اوقفت زحف الصليبيين صوب الشرق، وقضت على امالهم في التقدم نحو العراق، واتمام سيطرتهم على اقليم الجزيرة، كما خيبت مطامح بوهمند في السيطرة على حلب وتحويل امارة انطاكية الى دولة كبيرة[١٤٩] كما شجعت رضوان، الذي كان على راس جيشه قرب الفرات يتابع سير المعركة، على القيام بسلسلة من الهجمات على المواقع الصليبية المحيطة بحلب، استطاع خلالها ان يجلوهم عنها بمساعدة اهاليها من المسلمين الذين انقضوا على حكامهم الصليبيين[١٥٠]، فامنت اعمال حلب، وعاد اهلها اليها، وقوي جاش رضوان وامتدت غارات قواته الى انطاكية[١٥١] ولم تقف نتائج هذه المعركة الحاسمة عند هذه الحدود، بل تعدتها الى داخل التشكيلات السياسية والعسكرية للامارات الصليبية. فبعد اسر بلدوين غدا تانكرد وصيا على الرها، كما اصبح بوهمند اقوى الامراء الصليبيين في الشمال، ولذا اهمل كلاهما مسالة افتداء بلدوين الذي بقي في الاسر اربع سنوات[١٥٢].

أما الامبراطور البيزنطي الكسيوس فقد استغل فرصة ضعف مركز بوهمند اثر تعرضه للانتقاد بسبب عدم افتدائه لرفيقه بلدوين، فضلا عن عدم التزامه بالمعاهدات التي كان قد عقدها مع الامبراطور الذي راح يشجع الانتفاضات التي قام بها سكان قليقية ضد حكامهم النورمان[١٥٣]، كما اوعز الى قواته بالاستيلاء على عدد من المدن والمواقع التي كان تانكرد قد استولى عليها من قبل، واشترك الاسطول البيزنطي في السيطرة على بعض المدن الساحلية بين اللاذقية وطرطوس[١٥٤] ، يضاف الى ذلك ان البيزنطيين تمكنوا من استغلال قواعدهم البحرية في قبرص لتقديم المساعدات لريموند الصنجيلي – عدو بوهمند اللدود – الذي كان يسعى لتاسيس امارة حول طرابلس تحاذى انطاكية من الجنوب[١٥٥] ، في الوقت الذي لم يتقدم فيه احد من القدس لنصرة بوهمند ومساعدته في هذه المحنة.

وكنتيجة للضربات التي تلقاها بوهمند من المسلمين والبيزنطيين، ضعف مركزه، فضلا عن ان معركة البليخ ادت الى فقدانه لعدد كبير من قواته، وانهيار روحهم المعنوية، ولم يكن

---

(149) Run ciman: A History of the Crusades 11/44, Grousset: Op. Cit, 1/403-407, Fink: Op. Cit., 1/389.

(١٥٠) Brehier: Vieet mort de Byzance, p.315.

(١٥١) ابن العديم : زبدة ١٤٨/٢–١٤٩ وانظر W.B.Stevenson :The crusaders:in the East, p 78

(١٥٢) Fink: Op. Cit ., 1/389.

(١٥٣) Grousset: Op. Cit., 1/413-414.

(154) Ibid: 1/413-414, Runciman: Op. Cit., 11/46, Cam. Med. Hist. Vol. Iv. p341, Brehier: Op. Cit., p. 314, Stevenson: Op. Cit., pp 078-79. Fink Op. Cit., 1/390.

(١٥٥) العريني : الحروب الصليبية ٣٨٦/١–٣٨٧

باستطاعته اعادة تنظيم جيشه من جديد بالسرعة التي تمكنه من ملاحقة الاحداث، فوجب عليه ان يختار احد طريقين : فهو اما ان يبقى وسط الاخطار المحدقة به من كل جانب، ويعرض امارته للتمزق والسقوط على يد اعدائه، واما ان يعود الى اوربا للقيام بدعوة صليبية جديدة قد تعود بالنص. وقد اختار الطريق الثاني، فاناب عنه تانكرد في حكم انطاكية واتجه الى ايطالية[١٥٦] ، واستطاع هناك ان يقنع البابا (باسكال) بان العدو الرئيسي لصليبيي الشرق انما هو الامبراطور البيزنطي، فاصدر البابا اوامره بالدعوة الى حملة صليبية جديدة ضد بيزنطية، واعلن ان القضاء عليها هو الضمان الوحيد لاستقرار الصليبيين في الشام[١٥٧] ، مما يعتبر نقطة تحول في تاريخ الحركة الصليبية، اذ ضحى باهداف ومصالح العالم المسيحي باجمعه في سبيل المصالح الخاصة لمغامري الفرنج. وسرعان ما تاكد البيزنطيون من ان مخاوفهم اصبحت حقيقة واقعة وذلك بتحول الحرب الصليبية الى وسيلة لتحقيق اطماع الغربيين الاستعمارية[١٥٨] ، وهكذا يمكن اعتبار محاولة بوهمند تلك، اساسا للحملة الصليبية الرابعة التي اسقطت القسطنطينية فيما بعد (٦٠١هـ = ١٢٠٤م)[١٥٩].

وكان لمعركة البليخ نتائج خطيرة بالنسبة لامارة الرها كذلك، اذ انها اوضحت احتمال سقوطها على ايدي المسلمين، نظرا للضعف الذي اصابها اثر تلك المعركة، ولتعرضها لكثير من المتاعب الداخلية وبخاصة من جانب الارمن الذين سرعان ما ابدوا تذمرهم من الحكم الصليبي. ويعلل المؤرخ متي الرهاوي موقف الارمن هذا بتعسف الصليبيين الغربيين تجاه الكنيسة الارمنية واهمالها، بل اضطهاد رجالها في كثير من الاحيان، مما دفع الارمن الى الاتصال – سرا – بالاتراك[١٦٠].

وأخيراً فقد ادت تلك المعركة الى القضاء على حلم الصليبيين بقطع الاتصال بين القوى الاسلامية في الجزيرة والشام واسيا الصغرى عن طريق الاستيلاء على حلب[١٦١] ، فضلا عن ان الظروف التي مهدت لها هذه المعركة ادت الى زيادة التقارب بين القوى الاسلامية والبيزنطيين ضد عدوهم المشترك الذي وضع بين شقي الرحى. وقد اوضح ابن القلانسي خطورة النتائج التي تمخضت عنها معركة البليخ قائلا ((وكان نصرا حسنا للمسلمين لم يتهيا مثله، وبه ضعفت نفوس

---

(١٥٦) Runciman: Op., 11/47, Grousset: Op. Cit. 1/415-416.
ابن العديم : زبدة ١٤٩/٢.

(١٥٧) Vasiliev: Byzantine Empire 11/410-411.

(١٥٨) Runciman: Op. Cit., 11/49, Grousset: Op. Cit., 1/416, Fink: Op., Cit., 1/391.

(١٥٩) Ostogorsky: History of the Bysentine State, p. 324.

(١٦٠) عاشور : الحركة الصليبية ٤٤٥/١.

(١٦١) Runciman: Op. Cit., 11/44.

الافرنج، وقلت عدتهم وفلت شوكتهم، وقويت نفوس المسلمين وارهفت عزائمهم في نصرة الدين ومجاهدة الملحدين. وتباشر الناس بالنصر عليهم، وايقنوا بالنكاية فيهم والادالة منهم))[١٦٢].

وهكذا قدر لجكرمش، بتحالفه مع سقمان، ان يلعب دورا خطيرا في تاريخ الحروب الصليبية، وان يقدم وحليفه، للعالم الاسلامي، اول نصر حاسم على الصليبيين، فتح به الطريق لظهور قيادات واحلاف اسلامية وجهت الضربات المتتالية للقوى الصليبية. تلك القيادات التي بدات بمودود حاكم الموصل السلجوقي، وانتهت بصلاح الدين، عبر ايلغازي وبلك الارتقيين، وآق سنقر البرسقي، ثم عماد الدين ونور الدين الزنكيين.

ورغم بعض البوادر السلبية التي اعقبت انتصار المسلمين في البليخ، فان جكرمش ظل يطمح لتحقيق انتصارات اخرى في هذا الميدان. وبعد اقل من سنتين اتيح له ذلك عندما تلقى في اواخر عام (٤٩٩هـ = ١١٠٦م) أمراً من السلطان محمد بالقيام بحملة جديدة لمهاجمة الصليبيين، فاتصل بامراء المنطقة وتمكن من تشكيل حلف يضم رضوان امير حلب وايلغازي الارتقي امير ماردين والبي تمرتاش صاحب سنجار والاصبهذ صباوا احد كبار امراء فارس. الا ان ما طرحه ايلغازي على الامراء المذكورين، اعاق تنفيذ الخطة المقترحة ؛ اذ طلب منهم ان يبداوا حملتهم ضد جكرمش بقصد الاستيلاء على الموصل لكسب رضا السلطان محمد الذي كان يحقد على حاكم الموصل بعض تصرفاته، فضلا عن امكانية الاستفادة المباشرة من ميزات الموصل وامكانياتها المالية والعسكرية ضد الصليبيين. فوافقه زملاؤه على ذلك ومضوا سوية لمهاجمة نصيبين التابعة لحاكم الموصل. الا ان نواب جكرمش هناك نجحوا – بتوجيه من سيدهم في الموصل – في اثارة النزاع والكراهية بين رضوان وايلغازي، فاغتنم رضوان فرصة اقامة وليمة امام اسوار نصيبين وقام باختطاف ايلغازي وتكبيله واعتقاله، الا ان اتباعه من التركمان تمكنوا من تخليصه، وقاموا بهجوم مباغت على معسكر رضوان ارغمه على الانسحاب والعودة الى حلب. وبذا تمزق هذا التحالف قبل ان يخطو خطوة واحدة صوب هدفه الاساسي في قتال الصليبيين[١٦٣].

إلاّ ان ذلك كله لم يثن جكرمش عن عزمه على مهاجمة اعدائه الحقيقيين، اذ انه ما ان تمكن من احباط مساعي الامراء المتحالفين ضده، حتى بادر بشن هجوم على الرها، الا انه ما لبث ان عاد الى الموصل ليواجه متاعب جديدة تجاه السلاجقة، بعد ان نجح في التغلب على

---

(١٦٢) ذيل تاريخ دمشق ، ص١٤٣. وانظر بشأن النتائج غير المباشرة لهذه المعركة:
Vasiliev: Op, Cit., 11/410, Runciman: Op, Cit., 11/49-51.

(١٦٣) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٥١-١٥٢، ابن خلدون : تاريخ ٥/٣١٩-٣٢٠.
Vasiliev: Op Cit., 11/410-411, Runciman: Op. Cit., 11/49-51, chalandon: Alexis comnene, p. 246, Grousset: Op. Cit., 1/418.

هجوم قامت به عساكر ريتشارد (سالرنو) الذي كان يحكم الرها انذاك نيابة عن بلدوين المأسور[١٦٤]. ولم يمض وقت قصير على ذلك حتى تحرك قلج ارسلان بن سليمان، سلطان سلاجقة الروم، لمهاجمة الرها، فانتهز نواب جكرمش في حران الفرصة وارسلوا اليه يستدعونه ليسلموا اليه البلد. فتقدم قلج ارسلان الى هناك ودخل حران ((وفرح به الناس لاجل جهاد الفرنج)) واقام هناك اياما اضطر بعدها للعودة الى بلده بسبب مرض شديد الم به، تاركا في حران جماعة من اصحابه لحمايتها[١٦٥]. ويبدو ان شخصية قلج ارسلان بدات تطغى، بما تمتع به من قوة واستقلال ونفوذ، على شخصيات رفاقه من الامراء المسلمين في المنطقة، بسبب خلافاتهم المستمرة، وتطاحنهم الدائم من اجل تحقيق مكاسب اقليمية محدودة. فضلا عن ان المشاكل التي جابهت جكرمش في الموصل، وتدهور علاقته مع السلاجقة صرف اهتمامه كلية عن ساحة الجهاد ضد الصليبيين، الامر الذي ادى الى ان يستقطب قلج ارسلان اهتمام نواب جكرمش في حران فاستدعوه وسلموه البلد، مما يفسر لنا – كذلك – ما حدث بعد قليل من استدعاء قلج ارسلان من قبل اهالي الموصل كي يتولى حكمهم، اثر مقتل حاكمهم السابق جكرمش.

في العام التالي (٥٠٠هـ = ١١٠٦م) اتصل ايلغازي الارتقي بجاولي سقاوة، احد كبار امراء فارس الذي كان السلاجقة قد ارسلوه للقضاء على جكرمش في الموصل، والذي اضطر – بسبب مناعة الموصل – إلى الانسحاب إلى سنجار. وهناك تم الاتفاق بينه وبين حليفه ايلغازي على السعي من اجل طرد قلج ارسلان الذي كان قد دخل الموصل، اثر وفاة جكرمش، بناء على طلب من اهاليها ؛ كما تم الاتفاق بينهما على القيام بمهاجمة انطاكية، بعد ان تتم لهما السيطرة على الموصل. الا انه ما ان تم القضاء على قلج ارسلان ودخل جاولي الموصل حتى انصرف الى اعلان العصيان ضد السلاجقة، ونسي اتفاقه مع ايلغازي بصدد مهاجمة صليبيي انطاكية[١٦٦] والواقع ان العالم الشرقي تاثر بزوال شخصية قلج ارسلان، فباختفائه انجاب خطر شديد عن بيزنطية في لحظة حرجة كان بوهمند اثناءها على وشك ان يهاجم بلاد البلقان. كما ان مقتله يعتبر بداية مرحلة بالغة الاهمية في انفصال الترك بالاناضول عن اخوانهم في اقصى الشرق، فضلا عن انه حرم المسلمين في الشام، في الوقت الراهن، من قوة كانت كفيلة باقامة الوحدة بينهم[١٦٧].

---

(١٦٤) رنسمان ١٧٧/٢–١٧٨. Fink: Op. Cit., 1/395

(١٦٥) ابن الاثير : الكامل ١٥٥/١٠.

(١٦٦) المصدر السابق ١٥٨/١٠–١٦١.

(١٦٧) رنسمان ١٧٩/٢–١٨٠.

جاولي سقاوه ٥٠٠-٥٠٢هـ = ١١٠٦-١١٠٨م :

لم يمض سوى وقت قصير على تولي جاولي الموصل، حتى تدهورت العلاقة بينه وبين السلطان السلجوقي الذي اضطر الى ارسال امير جديد، هو مودود بن التونتكين عام (٥٠٢هـ = ١١٠٨م) لطرد جاولي من الموصل، وتوليها بدلا عنه. وما ان سمع جوسلين بهذه الانباء حتى اخذ يسعى لاطلاق سراح بلدوين الذي كان قد اسر في معركة البليخ، والذي غدا مع سائر مخلفات جكرمش، تحت قبضة جاولي. وكان هذا في امس الحاجة الى المساعدة لمواجهة الهجوم المقبل من مودود، فرحب بطلب جوسلين، وشرط عليه منحه ستين الف دينار، والافراج عن الاسرى المسلمين المعتقلين في الرها، وعقد محالفة عسكرية بين الطرفين. وبينما كانت المفاوضات تجري قدما، خرج جاولي مطرودا من الموصل حيث لم يلق مساندة من اهل المدينة الذين فتحوا الابواب لمودود، واتجه الى نصيبيين التابعة يومئذ للامير ايلغازي بن ارتق، امير ديار بكر، وراسله من هناك سائلا اياه الاجتماع به وتقديم عونه له ((وان يكونا يدا واحدة. واعلمه ان خوفهما من السلطان ينبغي ان يجمعهما على الاحتماء منه)). الا ان ايلغازي لم يستجب لطلبه، فسار جاولي الى الرحبة حيث اقام هناك[١٦٨] وبصحبته الامير بلدوين.

استطاع جوسلين ان يجمع في يسر مبلغ ثلاثين الف دينار وقدم بالمال الى قلعة جعبر الواقعة على نهر الفرات، حيث احتجز جاولي اسيره بلدوين تحت رعاية صاحبها سالم بن مالك العقيلي. وعرض جوسلين على جاولي ان يتخذه رهينة مقابل اطلاق سراح بلدوين. ثم ما لبث جاولي – بعد بضعة اشهر – ان اطلق سراح جوسلين رغبة منه في توثيق عرى تحالفه مع الصليبيين، واعتمادا على الوعد الذي بذله جوسلين بدفع المبلغ كاملا، وبعد ان اخذ اثنين من اقرباء الاميرين الصليبيين رهائن لديه. وما ان وصل جوسلين منبج حتى اغار عليها واعمل في اطرافها نهبا، وكان في صحبته جماعة من قوات جاولي، فانكروا عليه ذلك واتهموه بالغدر، فكان جوابه : ان هذه المدينة ليست لكم!![١٦٩].

كان تانكرد قد ظل طيلة سنوات اسر بلدوين الاربع، سيد الرها وحاكمها المطلق، فلم يشا ان يتخلى له عنها. وعندما وصل بلدوين الرها اعلن تانكرد عن موافقته على تحصيل المبلغ المطلوب لافتدائه، وقدره ثلاثون الف دينار، غير انه رفض ان يعيد المدينة اليه الا اذا حلف له يمين الولاء، الا ان بلدوين، باعتباره تابعا لملك بيت المقدس، رفض رغبة تانكرد وتوجه ساخطا الى تل باشر حيث لحق به جوسلين، وارسلا الى جاولي من هناك يطلبان مساعدته، كما التمسا – كذلك – مساعدة كواسيل الارمني امير كيسوم ورعبان الذي كان يشاركهما الكراهية لتانكرد

---

(١٦٨) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٧٣.

(١٦٩) المصدر السابق ١٠/١٧٤.

بسبب اطماعه في قلقيلية وبغضه للارمن. ولم يسع تانكرد الا ان يزحف على تل باشر حيث جرت مناوشة طفيفة عقد بعدها اجتماع ساده التنافر، ولم يتوصلوا فيه الى تسوية. فتحرك بلدوين شمالا يلتمس حلفاء اخرين، بعد ان عزز تحالفه مع جاولي بان اهداه مائة وستين اسيرا من المسلمين جهزهم بالعتاد. وما لبث ان قفل عائدا بعد ان حصل على عدد من الحلفاء من قادة المسيحيين والارمن. ولم يكن تانكرد مستعدا لاثارة غضب جميع الارمن، فضلا عن ان برنارد بطريرك انطاكية جعل كل نفوذه الى جانب بلدوين، الامر الذي حمل تانكرد على التنازل عن الرها لبلدوين حيث استقبل هناك بمظاهر الغبطة والسرور[١٧٠].

لم يكن ذلك الا هدنة مؤقتة اخلص بلدوين اثناءها صداقته لجاولي، واعاد اليه عددا كبيرا من الاسرى المسلمين، وسمح باعادة بناء المساجد في سروج، وامر باعدام كبير قضاة سروج الذي لم يكن مقبولا لدى السكان بسبب مروقه عن الدين. وكان اصحاب جاولي في سروج قد سمعوه يقول في الاسلام قولا شنيعا فضربوه، وجرى نزاع بسببه بينهم وبين الفرنج، فذكر ذلك لبلدوين فقال ((هذا لا يصلح لنا ولا للمسلمين)) وقتله[١٧١]. وما لبث السلطان السلجوقي ان ارسل احد امرائه ليصلح الحال مع جاولي، ويامر قواته بالمسير بصحبة ابن عمار صاحب طرابلس لجهاد الصليبيين فحضر الامير عند جاولي، وامره بتسليم البلاد التي تحت حوزته للسلطان، وطيب قلبه نيابة عنه، وضمن له حسن العاقبة اذا سلم البلاد واظهر الطاعة والانقياد لاوامر السلطان، فاجابه جاولي ((انا مملوك السلطان وفي طاعته))، وسعى الى استغلال الفرصة واستعادة الموصل من مودود، لكنه اخفق في مسعاه، وعاد الامير (الموفد) الى السلطان يحمل اليه طاعة جاولي وولاءه[١٧٢].

ارتاع رضوان امير حلب لتحالف جاولي مع جوسلين وبلدوين، ذلك ان جاولي كان يهدد ممتلكاته على نهر الفرات، ورد رضوان على ذلك بان اغار على قافلة تجارية كان من بين ما تحمله شطر من المال الذي افتدى بلدوين نفسه به، وكان مرسلا من تل باشر الى مقر جاولي ؛ كما فرض الجزية على سكان الرقة باقليم الجزيرة، الامر الذي اعتبره جاولي عملا عدائيا فقام في خريف (٥٠٢هـ = ١١٠٩م) بشن هجوم على مدينة بالس الواقعة على نهر الفرات، على بعد خمسين ميلا من حلب، وتمكن من الاستيلاء عليها، وقتل كبار انصار رضوان فيها، واضحى بذلك يهدد حلب نفسها. فبادر رضوان الى طلب العون والمساعدة من تانكرد، وارسل اليه ((يعرفه ما عليه جاولي من الخداع ويحذره منه، ويعلمه انه على قصد حلب، وانه ان ملكها لا

---

(١٧٠) رنسمان ١٨١/٢-١٨٣، الكامل ١٧٣/١٠-١٧٤.

(١٧١) ابن الاثير : الكامل ١٧٤/١٠.

(١٧٢) المصدر السابق ١٧٤/١٠-١٧٥.

يبقى للفرنج بالشام معه مقام ؛ وطلب منه الاتفاق على منعه)). فاجابه تانكرد الى ذلك وبرز من انطاكية ليتلقاه وقواته ستمائة فارس ارسلهم رضوان لمرافقته. فقام جاولي من جهته بالاستنجاد بحليفيه جوسلين وبلدوين، واطلق للاخير ما تبقى بذمته من مال[١٧٣] فجهز كل من بلدوين وجوسلين بضع مئات من فرسانهما انحازا بها الى جاولي عند منبج، وبلغ عدد الجيش المتحد نحو الفي رجل. اما رضوان وحليفه فاعدا لهم ما يزيد على ذلك بقليل. ودارت المعركة قريبا من تل باشر، واشتد وطيسها بين مسيحيين ومسلمين من جهة، ومسيحيين ومسلمين من جهة اخرى. واستطاعت قوات جاولي ان ترد بالتدريج صليبيي انطاكية وتكبدهم خسائر فادحة، الا ان الدائرة ما لبثت ان دارت على قوات جاولي وحلفائه بسبب طمع البدو بخيول حلفائهم الصليبيين، وتسلل عدد كبير من جند جاولي والتحاقهم بوالي الموصل الجديد : مودود، مما كان له تاثيره السيء على سير القتال الذي انتهى بهزيمة جاولي وحلفائه الصليبيين، وكاد جوسلين وبلدوين ان يقعا في الاسر. ولم تقل خسائر المسيحيين عن الفين من الرجال. ومن ثم انسحب جوسلين الى مقره في تل باشر. واتجه بلدوين الى دلوك حيث قام تانكرد بمحاولة لحصاره هناك، غير انه رجع عن عزمه حينما شاع خبر قدوم جاولي. وما لبث جوسلين وبلدوين ان استعادا الرها، اما جاولي فقد لجا الى الرحبة، بعد ان قتل من اتباعه عدد كبير، وقام امير انطاكية بنهب اموالهم واعتدتهم. وسرعان ما علم جاولي ان لا مقام له في الجزيرة او الشام، سيما بعد ان خضعت منطقة الموصل والجزيرة لغريمه مودود. فلم يبق امامه الا ان يطرق باب السلطان محمد في اصفهان، ويستامنه على نفسه [١٧٤].

كان من نتائج معركة تل باشر ان كره سكان الرها من الارمن حكم اللاتين مثلما كرهوا حكم النورمان الذي يمثله رتشارد نائب تانكرد على امارة الرها، فارادوا ان يستقلوا، او ان يتخذوا واحدا منهم اميرا عليهم، فحاولوا الاتصال بكواسيل، امير كيسوم الارمني، كي يتولى امرهم، غير ان هذه المحاولة احبطت بقدوم بلدوين وجوسلين الى الرها، حيث انزلا بالارمن اشد العقاب، وبادرا بالضرب على ايديهم دون هوادة او رحمة. ومنذ سنة (٥٠٢هـ = ١١٠٨م) زال التعاون الذي كان قائما بين الارمن والصليبيين، واصبحت السلطة كلها بايدي هؤلاء، واضحى الارمن موضع ريبة وشك وابرز دليل على ذلك ما حدث سنة (٥٠٦هـ = ١١١٢م) حينما حاولوا تسليم

---

(١٧٣) المصدر السابق ١٠/١٧٥.

(١٧٤) رنسمان ٢/١٨٣-١٨٥ Grousset: Op. Cit., 1/439-440, Fink: Op. Cit., 1/394

ابن الاثير : الكامل ١٠/١٧٤-١٧٦، ابن العديم : زبدة ٢/١٥٣-١٥٤ وهو يشير – خطأ – الى ان جاولي بلغه – خلال القتال – ان الفرنج يريدون الاجتماع عليه ، فمال على اصحابه من الفرنج وقتلهم عن اخرهم ثم هرب ، وهلك جميع رجالة تانكرد واكثر خيله.

الرها لمودود لدى قتاله للصليبيين، وترتب على ذلك طرد السكان الارمن من الرها[١٧٥] الا ان اهم نتائج تلك الحرب المزدوجة، ولا ريب، انها اضاعت الفرصة على الصليبيين لتحطيم قوة الترك حول الرها. فلم يلبث ان تولى الموصل مودود الذي يعتبر من اوائل الداعين لحركة الجهاد وتوحيد الجبهة الاسلامية ؛ ومن المحقق ايضا ان الترك لم يغتنموا هذه الفرصة لمهاجمة قوات الصليبيين المنقسمة على نفسها[١٧٦].

مودود بن التونتكين ٥٠٢-٥٠٧هـ = ١١٠٨-١١١٣م :

يحتل مودود مكانة خاصة في تاريخ الجهاد ضد الصليبيين ؛ وقد اسهمت في تكوين هذه المكانة عوامل عدة اهمها – ولا ريب – الفترة المبكرة التي ظهر فيها، والطابع الاسلامي العميق لشخصيته المتفانية في سبيل اهداف المسلمين الكبرى، وسياسته الداخلية العادلة السمحة، وقدرته – بناء على ذلك كله – على تزعم حركة الجهاد، وايجاد نوع من التنسيق، ربما لاول مرة، بين كافة القوى الاسلامية في ساحات الجهاد، الامر الذي لن نجده متبلورا وناضجا الا في عهد الاراتقة وزنكي فيما بعد.. واخيرا، نجاحه في وضع الصليبيين في مواضع الدفاع، وتحقيقه عددا من الانتصارات، جاء احدها عند مرتفعات طبرية في قلب فلسطين، بعيدا عن الساحة التي درج عليها الصراع بين ولاة الموصل السابقين واعدائهم ... ثم جاء مقتله السريع، اثر ذلك، في جامع دمشق على ايدي الباطنية، الاعداء الشرسون لحركة الجهاد والمقاومة، والحزن العميق الذي شمل جماهير المسلمين بعيد اغتياله والكلمات المخلصة التي فاه بها قبيل استشهاده.. جاء ذلك كله لكي يؤكد مكانة مودود الاسلامية كبطل من ابطال الحروب الصليبية، ورائد من رواد الجهاد الاولين.

جال مودود بقواه الاسلامية ثلاث جولات ضد الصليبيين، كانت اولاها عام (٥٠٣هـ = ١١٠٩م) بعد اشهر قليلة من استتباب الامر له في الموصل، وبعد ان تلقى امرا من السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه بالتحرك لقتال الصليبيين. فبدأ مودود بتشكيل تحالف اسلامي ضم الامير ايلغازي الذي تقدم على راس قواته الضخمة من التركمان، سكمان القطبي امير ارمينية، وعددا كبيرا من المتطوعين. وهكذا ((اجتمع المسلمون في عدد لا يقوم بلقائه جميع الافرنج))[١٧٧]. واتفقت اراؤهم على بدء عملياتهم بمهاجمة الرها والاستيلاء عليها، فاتجهوا اليها

---

(١٧٥) العريني : الحروب الصليبية ١/٤٥٣-٤٥٤ ، Grousset: Op. Cit., 1/442

(١٧٦) Ibid., 1/440-442, Fink: Op. Cit., 1/394

(١٧٧) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٦٩.

ونزلوا عليها في شوال (٥٠٣هـ = ١١٠٩م) وشددوا عليها الحصار[١٧٨]. وما ان وصلت انباء احتشاد القوات الاسلامية الى الصليبيين، حتى ارسل بلدوين لي بور، امير الرها، يستنجد بملك بيت المقدس، اذ كان يشك بنوايا تانكرد امير انطاكية وبانه تامر مع المسلمين ضد الرها[١٧٩]. الا ان بلدوين لم يتوجه لمساعدة امير الرها الا بعد انتهائه من احتلال بيروت، وتوحيد امراء الصليبيين في جبهة واحدة انضم اليها كثير من العناصر المسيحية[١٨٠] ، كما ارسل الى انطاكية يستدعي تانكرد وقواته للمشاركة في المعركة الفاصلة ضد المسلمين[١٨١] ، فاضطر هذا، حفاظا على سمعته، الى التوجه على راس الف وخمسمائة فارس للاجتماع برفاقه[١٨٢] ، ومن ثم شخص الجميع صوب الرها.

وصلت الانباء الى طغتكين امير دمشق فتحرك من هناك على راس قوات كبيرة، نحو الفرات الذي لم يتمكن الصليبيون من عبوره بسبب انتشار طلائع القوات الاسلامية في سائر المنافذ المؤدية اليه. ولما عرف المسلمون قرب الصليبيين منهم قرروا فتح الطريق امامهم ليتمكنوا من لقائهم في السهول الممتدة شرقي الفرات. فغادروا الرها في اواخر ذي الحجة سنة (٥٠٣ = ١١١٠)، وعسكروا في ارض حران، التابعة لايلغازي، خدعة للصليبيين. واذ ادرك هؤلاء الهدف من هذه المناورة[١٨٣] ووردتهم انباء تحرك رضوان لمهاجمة المواقع التابعة لانطاكية، وتحرك المصريين لمهاجمة فلسطين، ايقنوا خطورة الاشتباك مع القوات الاسلامية وقرروا الانسحاب من الجهات الممتدة شرقي الفرات صوب المواقع الغربية التابعة لهم، واخلاء المناطق المذكورة من المسيحيين المحليين (الارمن واليعاقبة) وتعزيز الامكانيات الدفاعية للرها ولكن ما ان بدا الصليبيون بعملية الانسحاب ونقل المسيحيين المدنيين[١٨٤] ، حتى نهض المسلمون في اثرهم، وادركتهم طلائع القوات الاسلامية فتمكنت من قتل واسر واغراق عدد كبير منهم، والاستيلاء على مقادير كبيرة من ميرتهم واعتدتهم. ومن ثم اتجه المسلمون ثانية لحصار

---

(١٧٨) المصدر السابق ، ص١٦٩، ابن العديم : ١٥٤/٢-١٥٥، ابن تغري بردي : النجوم ١٩٩/٥، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (المخطوطة) ٢٦٥/٣/١ب ، ابن الفرات : تاريخ (المخطوطة) ٤٠/١٢-٤١.

(١٧٩) Albert d' Aix: Op. Cit., P. 670

(١٨٠) Runciman: Op. Cit., 11/116, Grousset: Op. Cit., 1/453, Sterenson: Op. Cit., 1/88

(١٨١) Fink: Op. Cit. 1\399.

(١٨٢) Stevenson: Op. Cit. 1\88.

(١٨٣) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٦٩-١٧٠، ابن العديم : زبدة ١٥٤/٢-١٥٦.

(١٨٤) Stevenson: Op. Cit., 1\88.

الرها. الا ان حصانة هذه المدينة، واهتمام العدو بتموينها صدت المسلمين عن فتحها، فتركوا عليها قوة لمراقبتها وعادوا الى بلادهم[١٨٥].

إن ما حدث خلال المعارك السالفة، من استئصال شأفة الارمن الذين استقروا في الرها قبل مستهل العصر المسيحي، واشتهروا بالثراء والمثابرة على العمل، برغم انهم ليسوا موطن ثقة من الناحية السياسية، انزل بالاقليم ضربة لم ينهض منها مطلقا. ومع ان كونتات الفرنج ظلوا يحكمون الرها بضع سنوات اخرى، فالثابت ان سلطان الفرنج فيما وراء الفرات – شرقا – كان مصيره الفشل الذريع، وادى هذا الفشل الى تعاسة السكان المسيحيين الوطنيين الذين خضعوا لحكومة الرها (الصليبية). وبلغ الغيظ من بلدوين لي بور انه قاد كتيبة من العسكر اجتاز بها النهر عائدا للانتقام من مودود، غير ان تفوق المسلمين في العدد جعل الياس يدب في نفسه، وكاد بلدوين يتعرض للهلاك لولا ان بادر لانقاذه الملك بلدوين وتانكرد رغم ان الاخير كان يكن له كرها عميقا[١٨٦].

وجاءت الجولة الثانية بعد اقل من سنتين، اثر الاستنفار الذي دعا اليه وفد من اهالي حلب قدم الى بغداد للدعوة الى الجهاد، بعد ما راوا من تمادي رضوان في اذعانه للصليبيين، والهزائم المتتالية التي مني بها مسلمو الشام والتي سقط على اثرها عدد من المواقع بايدي الاعداء. وقد استفز نداء الوفد الحلبي جماهير بغداد وفقهاءها، فقاموا بتظاهرة واسعة طالبوا المسؤولين خلالها، خلفاء وسلاطين، بضرورة اعلان الجهاد وتسيير الجيوش لوقف الزحف الصليبي. وصادف في الوقت نفسه ان استقبل الخليفة سفارة من الامبراطور البيزنطي الكسيوس، كان اعضاؤها قد تلقوا، فيما يبدو تعليمات تقضي بان يتناقشوا مع السلطات الاسلامية حول احتمال القيام بعمل مشترك ضد تانكرد امير انطاكية. ولقد استفزت هذه المفاوضات جماهير المتظاهرين، بعد ان راوا كيف ان الامبراطور المسيحي غدا اكثر حمية على قتال الفرنج من خليفة المسلمين وسلاطينهم. وقد اسرع الخليفة باعلام السلطان السلجوقي بما جرى، وطلب منه الاهتمام بالامر، والاسراع بالاستجابة لنداءات المسلمين، فاصدر هذا اوامره على الفور الى واليه على الموصل الامير مودود بتشكيل تحالف اسلامي جديد جاعلا القيادة الاسمية لابنه الملك مسعود[١٨٧].

ضم التحالف الجديد الذي قاده مودود عددا كبيرا من الامراء كان من بينهم سكمان القطبي امير ارمينية، وبرسق حاكم همذان، والامير احمديل الكردي صاحب مراغة، وابو الهيجاء

---

(١٨٥) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٧٠-١٧١، ابن الفرات : تاريخ (المخطوطة) ١/٤٠-٤١.

(١٨٦) رنسمان ٢/١٩٠-١٩١.

(١٨٧) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٨٢-١٧٣.

صاحب اربل ؛ اما ايلغازي الارتقي امير ماردين فقد اناب عنه ولده (اياز) لانشغاله بالمشاكل الداخلية لامارته. وقد بدا هذا التحالف عملياته العسكرية بالاستيلاء على عدد من المواقع الصليبية في اقليم شبختان، شرقي الفرات، وتوجه قادته من ثم الى الرها لحصارها، فلما اعيتهم بسبب تحصيناتها واستعداداتها الدفاعية، تحولوا عنها الى تل باشر[١٨٨] كي يجروا اعداءهم الى عبور الفرات فيتمكنوا منهم. الا ان هذا كان خطا من قادة المسلمين، لان الصليبيين تمكنوا لدى عبورهم الفرات من نقل مقادير كبيرة من الميرة والاعتدة والاقوات الى الرها، فقويت من بعد ضعف كاد يوقعها بايدي المسلمين لو استمروا على حصارهم لها[١٨٩]. وما لبث جوسلين صاحب تل باشر، الذي تعرض لضغط القوات الاسلامية، ان تمكن من رشوة القائد الكردي احمديل الذي كان الجزء الاكبر من قوات المسلمين بمعيته فانسحب متراجعا بالرغم من معارضة سائر الامراء[١٩٠].

ولم يمض وقت طويل حتى استنجد رضوان بمودود واستدعى قواته للقدوم الى حلب كي يعملوا سوية من هناك ضد المواقع الصليبية. فغادر مودود تل باشر متجها الى حلب على راس قواته، وما ان ابتعدوا عن تل باشر حتى خرج اليهم جوسلين، على راس قوة من فرسانه، وتمكن من مهاجمة مؤخرتهم، وقتل ما يقرب من الف رجل منهم، وعاد الى بلده مثقلا بالغنائم[١٩١].

لم تكن دعوة رضوان لمودود صادقة، فلم تكد القوات الاسلامية تقترب من حلب حتى اقفل رضوان بوجهها الابواب، واتخذ من اجراءات الحيطة لمنع المظاهرات ان امر باعتقال عدد كبير من اعيان المدينة واتخذهم رهائن. ولم يسع مودود الا ان يتحرك بجيشه جنوبا الى شيزر بعد ان اغار على عدد من المواقع الصليبية في الشمال. وفي شيزر اجتمع به طغتكين، الذي كان قد توجه الى بغداد طالبا المساعدة لاستعادة طرابلس، الا انه خاف ان تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الصليبيين سرا. اما تانكرد الذي عسكر امام شيزر فانه تراجع الى افامية، وارسل الى الملك بلدوين يستنجد به، فاستجاب له هذا وبعث الى سائر الفرسان في الشرق الصليبي ليلحقوا به، فانضم اليه عدد كبير منهم ؛ كما قام تانكرد باستدعاء اتباعه من سائر جهات انطاكية. اما مودود فقد تحصن خلف اسوار شيزر قبل ان يكتمل حشد الصليبيين الذين بلغ عددهم نحو ستة عشر الف مقاتل كان على راسهم ملك بيت المقدس، وامراء الرها وانطاكية وطرابلس. ورفض مودود ان يجره اعداؤه الى معركة حاسمة. الا ان الامور لم تجر على نحو

---

(١٨٨) الكامل ١٠/١٨٣-١٨٤، ابن خلدون : تاريخ ٥/٨٧-٨٨، ٤١٢-٤١٣.

(١٨٩) الغزي : نهر الذهب ٣/٨٢.

(١٩٠) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٧٥، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨/٣٥-٣٦

(١٩١) Albert dAIX, P. 681.

طيب في جيشه، اذ ان طغتكين لم يشا ان يبذل له المساعدة الا بعد ان تعهد مودود بالمضي في حملته الى الجنوب لقتال الصليبيين في فلسطين، رغم خطورة هذه المحاولة من الناحية العسكرية. اما برسق الكردي فاصابه المرض واراد ان يعود الى بلاده، ومات سكمان القطبي فجاة فانسحبت عساكره صوب الشمال حاملة جثمانه. وبادر احمديل الى الانسحاب بعساكره محاولا انتزاع جانب من ممتلكات سكمان. ولم يعد بوسع مودود القيام بالهجوم نظرا لتناقص قواته يوما بعد يوم، كما انه لم يكن راغبا في ان يقضي الشتاء بعيدا عن الموصل، فقفل عائدا اليها(١٩٢).

كان لتلك البوادر السيئة من قبل بعض الامراء اثرها المباشر على امكان تحقيق اي نصر حاسم ضد الصليبيين، كذلك الذي حققه جكرمش وسقمان في معركة البليخ. وقد اظهرت هذه الاحداث مدى تفكك القيادات الاسلامية وعدم وحدتها، في الوقت الذي تجمعت فيه القوى الصليبية في شمالي الشام وجنوبه، وحققت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعا من الزعامة على سائر امراء الصليبيين(١٩٣) ولعل ما حدث من الالفة بين بعض قادة المسلمين واعدائهم في الشام، والخوف من انتزاع الاقطاعات واعادة توزيعها اذا انتصرت قوات السلاجقة في الشام، وحرمان الاسرات العريقة من اقطاعاتها، كل ذلك حمل رضوان وتانكرد على ان يسويا ما بينهما من مشاكل، وان يعملا على الاحتفاظ بالوضع الراهن في الشام. ولذا لم يتعاون رضوان مع الجيش التركي، واقدم على عقد هدنة مع تانكرد لقاء ان يقف على الحياد. وصار رضوان يعتبر جيش مودود عدوا له، واشتد خوفه من الرعية ان يسلموا البلد اليه. اما طغتكين فانه على الرغم

---

(١٩٢) رنسمان ١٩٧/٢-٢٠١، ابن الاثير : الكامل ١٨٣/١٠-١٨٤، الباهر ، ص١٧-١٨، سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ٣٥/٨-٣٦، ابن خلدون : تاريخ ٨٧/٥-٨٨، ٤١٢-٤١٣، ابن تغري بردي : النجوم ٢٠١/٥، الغزي : نهر الذهب ٨٢/٣، ابن العديم : زبدة ١٥٨/٢-١٦١، ابن الفرات : تاريخ (المخطوطة) ٤٠/١-٤١. ويخطئ ابن كثير (البداية والنهاية ١٧٣/١٢) في الاشارة الى ان ايلغازي الارتقي حضر بنفسه العمليات الحربية لهذا التحالف. أما ابن القلانسي (الدمشقي) فانه يبالغ في الدفاع عن موقف طغتكين ، حاكم دمشق ، وابرازه بمظهر الحريص على وحدة المسلمين واهداف الجهاد ، فيقول مثلا "سار طغتكين للقاء العساكر الاسلامية ، لكنه لم ير منهم عزيمة صادقة للجهاد.. واستجرهم الى معرة النعمان ولكنه ظهر له منهم سوء نية فنفر منهم . فاتفق مع مودود ، وتأكدت المعاهدة بينهما .. وتفرقت العساكر برغم الحاح طغتكين بقصد طرابلس" ثم يقول : ".. وتسلط الاتراك ، اتباع مودود وطغتكين ، على جوانب الفرنج ، وامتنع احدهم عن الخروج . ثم رحلوا الى افامية وتعدوها وتبعهم المسلمون وتخطفوا اطرافهم ، وعادوا الى شيزر .. ففرح الناس واستحكمت المودة بين مودود وطغتكين" (ص١٧٤-١٧٨) ونقل عنه سبط الجوزي : مرآة الزمان ٣٦/٨-٣٧.

(١٩٣) Fink: Op. Cit., 1/400.

من شدة تعلقه بحركة الجهاد، فانه كان حريصا ايضا، مثل رضوان، على الابقاء على الاوضاع في الشام كما هي، واشتد قلقه من الترك فسعى الى مهادنة الفرنج سرا[١٩٤].

ما لبث مودود ان قام في اواخر ذلك العام (٥٠٥هـ) بهجوم جديد على الرها، معتمدا على نفسه فحسب هذه المرة، بعدما جرعه حلفاؤه من مرارة في حملتهم المشتركة ذلك العام ؛ وظل مودود على راس قواته في المنطقة، وراح يجني محصولاتها الزراعية حتى مطلع العام التالي، ومن ثم رحل عنها الى سروج وفعل في منطقتها ما فعله في الرها. ولم يمض سوى وقت قصير على ذلك، حتى انتهز جوسلين صاحب تل باشر غفلة من القوات الاسلامية المتفرقة في المنطقة، فدهمها بخيله وقتل عددا من مقدمي المسلمين وجندهم، كما تمكن من استياق معظم ماشيتهم، وعندما استعد المسلمون لرد الهجوم، كان هو قد تقهقر مسرعا الى سروج[١٩٥]. غير ان اهم ما ترتب على حملة مودود تلك من احداث هو المؤامرة التي دبرها الارمن لتسليم الرها للمسلمين، تخلصا من اضطهاد الفرنج وظلمهم المتزايد. الا ان جوسلين اكتشف المؤامرة وانقذ بلدوين صاحب الرها بان انذره بالخطر، وانحاز اليه حيث اتخذا معا اجراء حاسما ضد المتآمرين[١٩٦].

لم يلبث مودود ان تلقى في اواخر عام (٥٠٦هـ) رسالة من حليفه طغتكين يستنجده فيها ضد بلدوين ملك بيت المقدس، الذي كان قد تابع غاراته حينذاك ضد امارة دمشق، واعمل في بلادها نهبا وتخريبا، حتى ان المواد الغذائية انقطعت عن دمشق وغلت فيها البضائع غلاء فاحشا. ولم يتمهل مودود في تلبية طلب حليفه[١٩٧] ، وتحرك غربا حيث انضم اليه كل من تميرك صاحب سنجار والامير اياز بن ايلغازي الارتقي. وعبر الفرات في اواخر ذي القعدة سنة (٥٠٦هـ). فتخوف الصليبيون لتحركه، وارسلوا الى طغتكين يبذلون له بعض الحصون والا يتعرض اي من الطرفين للآخر، فلم يجبهم الى ذلك، الامر الذي دفع بلدوين الى القيام بمزيد من الغارات على امارة دمشق. وما ان سمع طغتكين نبا اقتراب حليفه من دمشق، حتى خرج الى سلمية لاستقباله هناك، واتفق رايهما على التوجه جنوبا للقاء بلدوين، حيث نجحا في استدراج

---

(١٩٤) العريني : الحروب الصليبية ٤٦٠/١ Grousset: Op. Cit., 1/465-66.

(١٩٥) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٨١، ابن الاثير : الكامل ١٨٦/١٠، سبط بن الجوزي : مرآة ٣٩/٧.

(١٩٦) رنسمان ٢٠١/٢.

(١٩٧) يشير ابن القلانسي (تاريخ دمشق ، ص١٨٤) ان حساد مودود كانوا – آنذاك – قد دسوا له عند السلطان " بأنه عازم على العصيان ، وانه غدا مع طغتكين يدا واحدة " فبعث مودود الى السلطان من يعرب له عن اخلاصه وبراءته " والاعتذار عما رمى به ، والاستعطاف له ، والاعلام بأنه جار على ما الف منه من اخلاص الطاعة والمناصحة بالخدمة والاهتمام بالجهاد ".

الملك شمالا صوب اراضي دمشق، باتجاه جسر الصنبرة الواقع عند المجرى الاعلى لنهر الاردن، وقد نسي، لاول مرة، ما اشتهر به من الحذر. وكان اللقاء في الحادي عشر (او الثالث عشر) من محرم، قريبا من طبرية، حيث اشتد القتال، بعد ان قام طغتكين بقطع الجسر، وصبر الفريقان ؛ وما لبث المسلمون ان انزلوا باعدائهم هزيمة ساحقة، وراحوا يعملون فيهم قتلا واسرا، كما غرق عدد كبير منهم في بحيرة طبرية ونهر الاردن، واصيب ملكهم بجرح تسبب في وفاته في العام التالي، وغنم المسلمون اموالهم وسلاحهم. وتراجع الصليبيون باتجاه مضائق طبرية، بعد ان فقدوا نحوا من الفي قتيل، وهناك التحقت بهم عساكر طرابلس وانطاكية بقيادة اميريها بونز وروجر اللذين كان بلدوين قد استنجد بهما قبيل المعركة، الامر الذي انقذ قوات بيت المقدس من كارثة محققه. وتبعهم المسلمون واحاطوا بهم من كل ناحية، بينما اوى الفرنج إلى جبل غربي طبرية واقاموا هناك ستة وعشرين يوما ((والمسلمون بازائهم يرمونهم بالنشاب فيصيبون من يقرب منهم))، ووصلت عسكر المسلمين انذاك نجدة تتكون من مائة فارس ارسلها رضوان على سبيل المعونة، خلافا لما كان قد قرره من الاسهام الكامل إلى جانب اميري الموصل ودمشق في القتال ضد الاعداء، فانكر مودود وطغتكين موقفه المتردد هذا، وابطلا العمل بما كانا قد عزما عليه من اقامة الخطبة له.

ولم يشأ المسلمون ان يخاطروا بمهاجمة كل قوات اعدائهم، فانهوا حصارهم وساروا الى بيسان حيث راحوا يهاجمون ويخربون بلاد الصليبيين الممتدة بين عكا والقدس، ويقتلون من يقع في ايديهم من الصليبيين، واثبتت مملكة بيت المقدس عجزها عن الدفاع عن نفسها، فسرعان ما اضحى الاقليم تحت رحمة المسلمين فهرب سكان المدن والقرى والفلاحون ولحقوا بالقوات الاسلامية، واصاب الفرنج – كما يقول مؤرخهم وليم الصوري – من الذلة والانكسار والخوف، ما جعلهم لا يجراون على مغادرة الاستحكامات والحصون. وسير مودود وحليفه رسولا الى السلطان السلجوقي في اصفهان يبشرانه بما تم على ايديهما من فتح، وبعثوا مع الرسول بعض ما غنموه، وعددا من اسرى الفرنج ورؤوسهم. الا ان بعد المسلمين عن بلادهم، وانقطاع الامداد والتموين عنهم، واشتداد البرد عليهم، اضطرهم الى وقف عملياتهم في المنطقة والعودة الى دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الاول، على امل الرجوع ثانية لقتال الصليبيين عند حلول الربيع، وبعد ان يتلقى مودود جواب السلطان على رسالته، والتعليمات التي سيصدرها بهذا الصدد. الا ان مودود ما لبث ان قتل في جامع دمشق على ايدي الباطنية، اثناء خروجه عقب صلاة الجمعة الاخيرة من ربيع الاخر، الامر الذي وضع حدا لخططه المشتركة مع حليفه امير دمشق في قلب

فلسطين، اذ شرعت قواته تتاهب للعودة الى الموصل، وغيرها من البلاد التي انطلقت منها لتنضوي تحت لواء مودود[١٩٨].

ما لبثت ان انتشرت شائعات تقول ان طغتكين هو الذي حرض على قتل مودود لحرصه على الاحتفاظ باستقلاله في دمشق، ولما ساوره من القلق على بقاء القائد العام لجند السلطان في دمشق، وما يترتب على ذلك من تهديد لاستقلاله[١٩٩] ولم يحّد من هذه الشائعات قيام طغتكين بقتل الجاني تبرئة لنفسه، اذ اعتبره الراي العام هو الجاني، غير انهم التمسوا له العذر بما دبره مودود من خطط للاستيلاء على دمشق[٢٠٠] الا ان كلا من ابن القلانسي وسبط بن الجوزي – اللذين يميلان بعض الميل لاتابكة دمشق – ينفيان هذه التهمة عن طغتكين اشد النفي. فيقول اولهما ((فقلق اتابك طغتكين لوفاته على هذه القضية، وتزايد حزنه واسفه، وكذلك سائر الاجناد والرعية))[٢٠١] ، ويقول ثانيهما : ((وقلق طغتكين لوفاة مودود على هذا الشكل وحزن حزنا شديدا وكذا سائر الناس. وذكر بعضهم ان طغتكين خاف منه فوضع عليه من قتله، وليس بصحيح، فان طغتكين كان احب الناس اليه، وحزن عليه حزنا لم يحزنه على احد، وشق ثوبه عليه، وجلس في عزائه سبعة ايام، وتصدق عنه بمال جزيل))[٢٠٢]. ونحن نرجح رواية المؤرخين المذكورين، وهما من سكان دمشق، بسبب قربهما الزمني او المكاني من الاحداث المذكورة، واطلاعهما الشامل على دقائق العصر الذي يتكلمان عنه. اما روايات ابن الاثير والذين نقلوا عنه والمؤرخين الغربيين فلا تعدو ان تكون استنتاجا وتخمينا، سيما وان هذه ليست اول، ولا اخر، مرة يتصدى فيها الباطنية لاغتيال زعماء الجهاد الاسلامي ؛ فضلا عن ان انتصار مودود وحليفه في فلسطين يعود بالنفع على امارة دمشق قبل غيرها، بما يحدثه في صفوف قوات بيت المقدس من ارباك وبما يقدمه لاتابكية دمشق واراضيها من حماية.

تأثر المسلمون لمصرع بطل من ابطال الجهاد، اشتهر باخلاصه وتفانيه وجرأته، وحزنوا حزنا عميقا لاختفائه السريع، بعد الانتصار العظيم الذي حققه مع حليفه في قلب البلاد

---

(١٩٨) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٨٦–١٨٧، الباهر ، ص١٨–١٩، ابن العديم : زبدة ٢/١٦٣–١٦٤، ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٨٤–١٨٨، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨/٤٢–٤٣، السيوطي: تاريخ الخلفاء ، ص٤٣٠، الذهبي : دول الاسلام ٢/٢٥، رنسمان ٢/٢٠٥–٢٠٦. (وانظر القسم الاول من هذا البحث).

(١٩٩) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٨٧، الباهر ، ص١٨–١٩، الاصفهاني : آل سلجوق ، ص١٥٨–١٥٩، أبو الفدا: المختصر ٤/١٤٥.

(٢٠٠) رنسمان ٢/٢٠٥–٢٠٦.

(٢٠١) تاريخ دمشق ، ص١٨٧–١٨٨.

(٢٠٢) مرآة الزمان ٨/٥١.

الصليبية، وبعد الخطط التي كان على اعتزام تنفيذها هناك ؛ وقد عبرت جماهير دمشق عن حزنها وغضبها، حيث شهدت المدينة اضطرابا لم تشهد له مثيلا منذ فترات بعيدة، ولم يهدىء من روع الناس سوى املهم بنجاة القائد من الجراح التي اثخنته، لكنهم ما ان سمعوا نبا استشهاده بعد ساعات قلائل، حتى عادوا – ثانية – الى ما كانوا عليه[٢٠٣]. وكتب ملك الفرنج في بيت المقدس كتابا الى طغتكين جاء فيه ((إن امة قتلت عميدها، يوم عيدها، في بيت معبودها، لحقيق على الله ان يبيدها))[٢٠٤]!! غير ان ملك الفرنج وغيره من امراء الصليبيين، تجاهلوا، او تعمدوا التجاهل آنذاك، ان ما هو اكثر عونا لهم واشد خطرا على كل محاولة اسلامية لقتالهم، ليست هي الامة التي ظنوا انها قتلت (عميدها في بيت معبودها)، فقد عرفنا موقف هذه الامة من مقتل بطلها المجاهد، انما هي تلك الفرقة الباطنية التي قامت على مذهب جديد، شديد الميل الى التدمير، كان قد انشاه في بلاد فارس، شخص يدعى الحسن بن الصباح. ولم تكن كراهية الحشاشين هؤلاء للمسيحيين تزيد على بغضهم للمسلمين السنيين. ولعل استعداد رضوان للتعاون مع تانكرد امير انطاكية، يرجع الى حد كبير الى ميله لمذهبهم. وتجدر الاشارة – هنا – الى ان اول حادث اغتيال قاموا به في الشام هو ما وقع سنة (١١٠٣م) من اغتيال جناح الدولة امير حمص. ولم تمض ثلاث سنوات على ذلك حتى قتلوا خلف بن ملاعب امير افامية، غير انه لم يفد من مصرعه سوى الفرنج في انطاكية. ومع ان الباطنية لم يكشفوا – حتى ذلك الوقت – عن سياستهم الا بما اقدموا عليه من اغتيالات متفرقة، فانهم اضحوا عاملا في السياسة الاسلامية لم يسع المسيحيون انفسهم الا تقديره[٢٠٥].

ولا شك ان الفرنج فرحوا لما حدث من مصرع مودود، لاختفاء عدو اعتبروه من اشد الخصوم كفاية وقدرة وصلابة. يضاف الى ذلك انهم افادوا من تخوف طغتكين من سلطان بغداد – بسبب اتهامه باغتيال مودود – فادى ذلك الى عقد هدنة مع بلدوين سنة (٥٠٨هـ = ١١١٤م)، بل ان طغتكين مضى الى ابعد من ذلك، فعقد محالفة مع امراء الفرنج في السنة التالية. اذ ان ما احاط بمصرع مودود من احوال ولدت الشكوك والمخاوف بين الترك، ودمرت قدرا كبيرا من الوحدة التي كرس حياته لتحقيقها[٢٠٦].

آق سنقر البرسقي (٥٠٧–٥٠٩، ٥١٥–٥٢٠هـ = ١١١٤–١١١٥، ١١٢١–١١٢٦م) :

---

(٢٠٣) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٨٧–١٨٨.

(٢٠٤) ابن الاثير : الكامل ١٨٧/١٠، الباهر ، ص١٨–١٩، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨ / ٥١ .

(٢٠٥) رنسمان ١٩٣/٢–١٩٥، وانظر عن نشاط هذه الفرقة المراجع التالية:

(٢٠٦) العريني : الحروب الصليبية ٤٦٤/١ Fink: Op. Cit., 1\403.

قام السلطان محمد، بعد مقتل مودود، بتعيين جيوش بك على ولاية الموصل، وما لبث ان عزله واستبدله باق سنقر البرسقي، قائده المحنك، بعد ان امره بقتال الصليبيين والسير على ذات الطريق التي كان سلفه مودود قد سلكها من قبل في ساحات الجهاد. ولم يكن البرسقي باقل من مودود تفانيا واخلاصا، ومقدرة عسكرية، وصبرا على القتال. وقد بدا تحركه من بغداد صوب الموصل عام (٥٠٧هـ = مايس ١١١٤م) على رأس قوات كبيرة، وكان يصحبه – وفقا للعادة السلجوقية المتبعة – الملك مسعود بن السلطان محمد ليكون الحاكم الاسمي لولاية الموصل والقائد الرسمي لحركة الجهاد السلجوقية ؛ وانضم الى قوات البرسقي عدد كبير من الامراء، كل على راس جنده. وبعد ان دخل البرسقي الموصل وفرض سيطرته على الاقاليم التابعة لها، توجه لمهاجمة حران، فاستنجد نائب الاراتقة هناك بصليبيي الرها يدعوهم لمساعدته ضد البرسقي، فلما احس اهالي البلد وبعض مسؤوليها بذلك، راسلوا البرسقي واستحثوه على الوصول اليهم، فتقدم الى حران وتمكن من دخولها بسهولة بالغة، بسبب وقوف الاهالي الى جانبه[٢٠٧]. ومن ثم اتجه الى ماردين لدعوة ايلغازي الارتقي للانضمام الى حملته، الا ان رفض ايلغازي لنداء المبعوث السلجوقي، اضطر الاخير الى مهاجمة ماردين وارغام اميرها على ارسال قوة من الاتراك، بقيادة ابنه اياز، للاشتراك في الجهاد تحت لواء البرسقي[٢٠٨] الذي غادر منطقة ماردين على راس خمسة عشر الف مقاتل لمهاجمة الرها، فبلغها في ذي الحجة، وفرض الحصار عليها، الا ان الدفاع المستميت الذي ابدته الحامية القوية التي كلفت بالدفاع عنها، وتوافر المؤن في المدينة، على حين تناقصت مؤن المسلمين رغم ما حصلوا عليه من قرى المنطقة، ما لم يكن يكفى لسد حاجتهم، ارغم البرسقي على مغادرة المدينة بعد حصار دام نحو شهرين، بعد ان قام بتخريب بعض جوانب بلدها، ومهاجمة عدد من المواقع الصليبية القريبة منها[٢٠٩].

ما لبث الارمن ان هيأوا للبرسقي مجالا جديدا للحركة والعمل. اذ ان ما حدث سنة (٥٠٦ = ١١١٢م) من مؤامرة قاموا بها لتسليم الرها لمودود – كما مر بنا – تكرر في السنة التالية، حينما كان مودود على وشك الاغارة على بلاد الفرنج، وكان بلدوين كونت الرها وقتذاك في تل باشر يدير اقطاع جوسلين. واكتشفت المؤامرة الثانية في الوقت المناسب، واصر بلدوين على نقل جميع سكان الرها من الارمن الى سميساط. على ان بلدوين عاد فأذن للارمن بالعودة الى الرها سنة (٥٠٨ = ١١١٤م) بعد ان لقنهم درسا قاسيا. غير ان فريقا منهم ارتحل الى بلاد

---

(٢٠٧) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (المخطوطة) ورقة ١٧آب.

(٢٠٨) انظر : ابن الفرات : تاريخ (المخطوطة) ٧٩/١–٨٠ وابن خلدون : تاريخ ٤٨٤/٥.

(٢٠٩) ابن الاثير : الكامل ١٨٩/١٠–١٩٠، ابن خلدون : تاريخ ٨٩/٥–٩٠، رنسمان ٢٠٨/٢–٢٠٩.

واسيل دغا وريث كواسيل الارمني على امارة مرعش وكيسوم ورعبانٌ[٢١٠] الذي كان قد ارتاع لمحاولات الصليبيين المتكررة للاستيلاء على املاكه. وعندئذ ارسل هو ووالدته الى البرسقي يدعوانه لتخليصهما من الفرنج. فلم يسع البرسقي الا ان يرسل احد قادته، وهو سنقر الطويل، الى كيسوم للتفاوض مع واسيل دغا. وعندما سمع الفرنج بما حدث، قاموا بمحاولة لمهاجمة سنقر وحلفائه الارمن، الا انها باءت بالفشل دون ان تحقق أية نتيجة[٢١١].

توجه البرسقي بعد ذلك الى منطقة شبختان جنوبي ديار بكر، ونشب خلاف بينه وبين اياز بن ايلغازي انتهى باعتقاله انتقاما منه بسبب عدم اشتراك ابيه في القتال، واعقب البرسقي ذلك القيام بمهاجمة المناطق الزراعية المحيطة بماردين، فاسرع ايلغازي بالتوجه الى حصن كيفا للاستنجاد بابن اخيه ركن الدولة داود بن سقمان، فاستدعى هذا قوات ضخمة من التركمان وسار معه للقاء البرسقي. وفي اواخر السنة المذكورة التقى الطرفان، وجرى قتال شديد صبر فيه الفريقان، وانتهى بهزيمة البرسقي وتفرق قواته، ونجاة اياز من الاعتقال. وما ان علم السلطان السلجوقي بنبأ هزيمة قائده حتى ارسل الى ايلغازي يتهدده، فخاف هذا عاقبة الوعيد، وتوجه الى دمشق للالتقاء بحليفه وحميه طغتكين، الذي كان هو الاخر قد تدهورت علاقته بالسلطان بسبب اتهامه اياه بقتل مودود في العام الماضي كما مر بنا[٢١٢].

وهكذا اخفقت حملة البرسقي التي كان بامكانها ان تمضي قدما، بما تهيأ لها من عدد كبير من المقاتلين، لتحقيق مزيد من الانتصارات ضد الصليبيين، الا ان البرسقي انساق وراء رغبته الشديدة في اخضاع اراتقة ماردين لارادته كممثل للسلطان السلجوقي، الامر الذي انتهى بفشل ذريع مزق قواته شر ممزق، ودفعه هو الى التخلي عن قيادته والعودة الى مقر ولايته في الموصل حيث انزوى هناك عدة اشهر يجتر آلامه، بعيدا عن مجريات الاحداث الخطيرة التي اعقبت هزيمته. ثم ما لبث في العام التالي (٥٠٩هـ) ان تلقى امر عزله واستبداله بالامير (جيوش بك) فاتجه الى اقطاعه في الرحبة حيث اخذ يرقب الامور من هناك.

---

(٢١٠) من مدن الثغور الواقعة بين الشام وبلاد الروم (ياقوت: معجم البلدان ٤/٢، ٧٩١/٣٣٣، ٤٩٨).

(٢١١) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٨٩، رنسمان ٢/٢٠٩-٢١١.

(٢١٢) ابن الاثير الكامل ١٠/١٨٩-١٩٠، ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٩١ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨/٥٢، ابن الفرات : تاريخ (المخطوطة) ١/٧٩-٨٢، الذهبي: دول الاسلام ٢/٢٦.

وبقي في اقطاعه ذاك لحين وفاة السلطان محمد عام (٥١١هـ-١١١٧م) حيث التحق ثانية بخدمة السلاجقة في العراق[٢١٣]. ولقد كان من نتائج هزيمة البرسقي – كذلك – ان دفع حلفاؤه الارمن الثمن باهظا حيث اضطر الامير الارمني واسيل الى التنازل لبلدوين عن املاكه جميعا (رعبان وكيسوم...) والتوجه الى القسطنطينية. واعقب بلدوين ذلك بالعمل على استئصال شأفة ما تبقى من الامارات الارمنية الواقعة في وادي الفرات حيث لم يبق سوى على امارة واحدة، وبذلك فقد الارمن ثقتهم بالفرنج[٢١٤].

أقام ايلغازي في دمشق عدة ايام اتفق فيها مع طغتكين على اعلان العصيان ضد السلاجقة والالتجاء الى الصليبيين للاحتماء بهم فراسلا روجر امير انطاكية طالبين محالفته، وكان من البديهي ان يستجيب هذا لطلبهما، ومن ثم اجتمع الامراء الثلاثة قريبا من حمص، واقروا شروط التحالف، وعاد كل من روجر وطغتكين الى بلده، اما ايلغازي فقد اعتزم التوجه الى ديار بكر لجمع التركمان والعودة ثانية للاجتماع بحليفه. الا انه ما ان ابتعد مسافة قصيرة عن

---

(٢١٣) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٩٤. ولم ينس البرسقي – وهو في الرحبة – واجبه في جهاد الصليبيين كأمير يحكم منطقة قريبة من مجالات نشاطهم. وكان اشهر مواقفه ضدهم آنذاك ما تم عام (٥١٠هـ) حينما قام امير طرابلس بحشد قواته والتقدم الى سهل البقاع لانزال الخراب به. وكان البرسقي قد وصل حينذاك الى دمشق على رأس عدد من قواته ، فاستقبله طغتكين احسن استقبال واتفق رأيهما على التوجه لضرب القوات الصليبية بسرعة قبل ان تتمكن من الوصول الى هدفها. يقول ابن القلانسي ((فهجموا عليهم وهم لا يشعرون ، فلم يتمكنوا من ركوب الخيل ، وكثر فيهم القتل والنهب ، ولم يفلت سوى امير طرابلس ونفر يسير ، واستولى الاتراك على الغنائم وقيل بان قتلى الفرنج زادوا على الثلاثة الاف وعاد طغتكين والبرسقي في عسكريهما الى دمشق مسرورين بالنصر والغنائم .. واستقبلهما الناس بالفرح .. وتوجه البرسقي عائدا الى بلده بعد استحكام المودة بينه وبين طغتكين ، والاعتضاد على الجهاد متى حدث امر)) (ذيل تاريخ دمشق ، ص١٩٧-١٩٨، وانظر سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨/٦٣). ولقد ادرك البرسقي منذ ذلك الحين اهمية حلب في جهاد الفرنج ، فاخذ يسعى لضمها الى اقطاعه في الرحبة ، سيما بعد ان حصل على منشور رسمي من السلطان باقطاعه اياها . ودبر عام (٥١٠هـ) خطة تمكن اصحابه بواسطتها من اغتيال لؤلؤ الخادم متولي امور حلب ، لكن الفرصة افلتت بسيطرة ياروقتاش ، احد خدم رضوان ، على مقدرات حلب واستنجاده بصليبيي انطاكية وتنازله لاميرها روجر عن احد المواقع القريبة من حلب ومنحه مبلغا من المال ، وسماحه له بتقاضي المكوس عن قوافل حلب ، الامر الذي اضطر البرسقي على التخلي عن هدفه والتوجه الى دمشق حيث اكرمه اميرها ووعده المساعدة على تحقيق بغيته (ابن العديم : زبدة الحلب ٢/١٧٧-١٧٩). وفي العام التالي (٥١١) تقدم البرسقي الى حلب يصحبه حليفه طغتكين ، وارسل الى اهلها يطلب منهم تسليمها اليه فامتنع المتسلطون على مقدراتها عن اجابته وارسلوا الى روجر ثانية يستنجدونه لدفع البرسقي عنهم فاضطر هذا الى التراجع الى الرحبة وعاد حليفه الى دمشق (زبدة الحلب ٢/١٨٠-١٨١).

(٢١٤) رنسمان ٢/٢١٠-٢١١ GROUSSET: OP. CIT., 1\493

حمص حتى لحقه صاحبها خيرخان بن قراجا، وقد تفرق عنه اصحابه، فاسره وبعض خواص امرائه، وارسل الى السلطان يعلمه بذلك ويطلب منه الاسراع بارسال قواته قبل ان يتمكن طغتكين من تخليص حليفه. وعندما بلغ طغتكين الخبر قفل عائدا الى حمص وارسل الى خيرخان يطلب منه اطلاق سراح حليفه فرفض الاخير طلبه وهدد بقتل ايلغازي ان لم يرجع طغتكنين عن حمص فاضطر هذا الى الرجوع. وانتظر خيرخان وصول قوات السلطان دون جدوى، فخاف ان يباغته اصحابه ويسلموا حمص الى طغتكين، فعدل الى الصلح مع ايلغازي، واطلق سراحه[٢١٥].

كان السلطان السلجوقي قد جهز عسكرا ضخما لدى سماعه انباء هزيمة البرسقي وعصيان ايلغازي وطغتكين وتحالفهما مع الصليبيين، واعطى قيادته لبرسق بن برسق حاكم همذان. ويبدو ان السلطان لم يعد يطمئن الى قدرة ولاته في الموصل على القيام بمهام قيادة القوات السلجوقية ضد الصليبيين، سيما بعد مقتل مودود وهزيمة البرسقي، ورای ان اختيار احد امرائه المقربين في بلاد فارس، كفيل بتجاوز نقاط الضعف التي اصابت الحملات السابقة ؛ لكنه لم يشا في الوقت نفسه ان يجعل الموصل، رائدة الجهاد ضد الصليبيين، بمنای هذه المرة عن الاسهام مع قواته الجديدة الذاهبة للجهاد، فامر عساكرها بالالتحاق بقوات برسق كي تعمل تحت امرته في المهمة التي القاها السلطان على عاتقه. وقد انضم الى حملة برسق، فضلا عن ذلك عدد من امراء بلاد فارس والعراق والجزيرة[٢١٦] كان ابرزهم جيوش بك والى الموصل السابق، والذي رشح ثانية لهذا المنصب اثر عودته من حملة برسق.

أصدر السلطان محمد امره الى قواته بان يبداوا عملياتهم بالقضاء على عصيان ايلغازي وطغتكين ومن ثم التوجه لقتال الصليبيين واكتساح مواقعهم، وكان لؤلؤ الخادم، الوصي على حلب، قد انضم الى ايلغازي وطغتكين لغرض الحصول على بعض المكاسب الاقليمية. وهكذا لم يبق مواليا للسلاجقة من امراء الشام سوى بني منقذ في شيزر وخيرخان صاحب حمص. وما ان عبر برسق الفرات (في سنة ٥٠٨ = ١١١٥م) حتى اتجه الى حلب لاتخاذها قاعدة لعملياته الحربية، وارسل الى لؤلؤ الخادم وشمس الخواص، مقدم عسكر حلب، يامرهما بتسليم المدينة بناء على امر السلطان، وعرض عليهما كتبه بهذا الصدد فما كان منهما الا ان اخذا يراوغانه في الاجابة، وارسلا الى ايلغازي وطغتكين يستنجدان بهما. فتقدم هذان على راس الفي فارس ودخلا حلب وتمكنا من تعزيز مقاومتها. وحين ذاك اضطر برسق الى ترك حلب والتوجه الى ((حماه))

---

(٢١٥) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٨٩-١٩٠، ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٩١، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨/٥٢، ابن خلدون : تاريخ ٥/٨٩-٩٠. ٣٢٤-٣٢٥، ٤٨٣-٤٨٥، ابن تغري بردي : النجوم ٥/٢٠٨، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/١٧٨، ابن الفرات : تاريخ (المخطوطة) ١/٧٩-٨٢)، CAHEN: Op. Cit., PP. 270-272.

(٢١٦) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٩٢، رنسمان ٢/٢١٢.

التابعة لطغتكين، فحاصرها وفتحها عنوة، ثم منحها للامير خيرخان، في الوقت الذي كانت الاوامر تقضي بتسليم السلطان السلجوقي كل مدينة او موقع يتم اخضاعه بواسطة قواته، الامر الذي ادخل الاضطراب في صفوف قوات برسق وافقدها تماسكها وطاعتها. وخلال ذلك كان طغتكين وايلغازي وشمس الخواص قد اتجهوا الى انطاكية واستجاروا باميرها روجر وطلبوا منه مساعدته للدفاع عن حماه، فلما بلغهم نبا الاستيلاء عليها، واجتمع بهم في انطاكية كل من بلدوين ملك بيت المقدس وبونز كونت طرابلس وبلدوين امير الرها، اتفق رايهم على مناورة قوات برسق وعدم الدخول معها في اشتباك حاسم بسبب ضخامة عددها، لحين دخول الشتاء الذي سيضطر قادتها الى التفرق والعودة كل الى بلده. ومن ثم اجتمع الصليبيون وحلفاؤهم في قلعة افامية بانتظار ما سيحدث، وكانت قواتهم تضم عشرة الالف مقاتل ؛ اما قوات برسق فقد عسكرت في قلعة شيزر متخذة منها قاعدة لعملياتها العسكرية بسبب ولاء حكامها من بني منقذ للسلاجقة. وبقي كلا الطرفين في معسكره طيلة شهرين، وجرت بينهما بعض المناوشات(٢١٧). وما ان حل الشتاء، وراى الصليبيون وحلفاؤهم انسحاب قوات برسق صوب الجزيرة حتى تفرقوا وعاد كل قائد الى بلده. الا ان قوات برسق التي كان انسحابها مجرد مناورة بارعة، سرعان ما كرت عائدة واتجهت لمهاجمة كفر طاب الصليبية وتمكنت من الاستيلاء عليها عنوة، حيث منحها برسق لبني منقذ، ثم توجه لمهاجمة افامية فامتنعت عليه، فتقدم الى المعرة التابعة هي الاخرى للصليبيين، وسرعان ما تلقى من لؤلؤ في حلب كتابا، اغلب الظن انه صدر عن خيانة صاحبه، وربما عن حيلة وخداع، يعتذر له فيه عما ارتكبه من ذنوب، ويطلب منه ان يرسل اليه قوة لتسلم حلب فاجابه برسق الى طلبه وارسل جيوش بك بقواته الى هناك الامر الذي اضعف مقدرة برسق العسكرية الى حد كبير، وما لبث ان تعرض لهجوم مباغت شنته عليه قوات روجر اثناء تحركه شمالا.

---

(٢١٧) اسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص٩٠-٩٢، ويذكر ابن العديم :(زبدة الحلب ١٧٤/٢-١٧٥) ان طغتكين كان " يريث الفرنج عن اللقاء خوفا من ان يكسروا العساكر السلطانية فيأخذوا الشام جميعها او ينكسر الفرنج فتستولي العساكر السلطانية على ما في يده ".

ونشب القتال عند تل دانث فحلت الهزيمة بقوات برسق، وقتل الصليبيون واسروا عددا كبيرا منهم، كما احرقوا ونهبوا ميرتهم، فاضطر برسق الى التراجع والعودة – من ثم – الى بلاد فارس بعد ان تفرقت عساكره، وبعد ان ثأر من ايلغازي بقتل ابنه اياز الذي كان محتجزا لديه[٢١٨].

وهكذا انتهت هذه المحاولة بالمصير نفسه الذي انتهت اليه المحاولات السابقة التي قادها البرسقي : تشتت قوات السلطان، وتفرق قادتها في البلاد. وكان السبب في كلتا الحالتين مشاحنات واحقاد ومطامع شخصية مزقت قوى المسلمين الى حين من اخطار مجابهات واسعة كهذه مع قوى المسلمين وقيادات السلاجقة. ولقد انهت هزيمة تل دانث اخر محاولة جادة قام بها سلاطين السلاجقة لاستعادة الشام، وقوت مركز روجر، امير انطاكية، الذي تمكن بانتصاره ذاك من تخليص الامارات الصليبية جميعا من خطر اكيد. ولقد بلغت الامارات الصليبية الشمالية، اثر هذه الموقعة، قمة مجدها، ووجدت الفرصة سانحة امامها لتحقيق انتصارات اخرى في المنطقة ضد القوى الاسلامية المفككة[٢١٩]. الا ان مما لا ريب فيه ان توقف المحاولات السلجوقية لقتال الصليبيين في الشام، ادى الى ان غدا هؤلاء يجابهون اسرات محلية كالارتقة اولا، والزنكيين والايوبيين فيما بعد، ركزت جل اهتمامها على امور الجزيرة والشام، وفاقت في خطورتها وشدتها محاولات السلاجقة وولاتهم في الموصل[٢٢٠] الامر الذي اتاح لمسلمي المنطقة تجميع قواهم بشكل اشد تركيزا، واعمق تماسكا، واكثر تنظيما في مجابهتهم لاعدائهم الغزاة.

إلا اننا يجب الا ننسى – في هذا المجال – ان السلاجقة ظلوا الى فترات متاخرة يوجهون نوعا من الاهتمام الى الدور الذي يجب ان تتسنمه الموصل في قيادة حركة الجهاد، وانهم كانوا يصدرون اوامرهم بين الحين والحين لولاتهم هناك بالتحرك لقتال الفرنج. ونحن نذكر

---

(٢١٨) ابن الاثير : الكامل ١٠/١٩٢–١٩٣، ابن العديم : زبدة ٢/١٧٤–١٧٦، ابن منقذ : الاعتبار ، ص٩٠–٩٢، ابو الفدا : المختصر ٢/٢٣٩–٢٤٠، ابن كثير ١٢/١٧٨–١٧٩، ابن خلدون : تاريخ ٥/٩٠–٩٢، ٤٨٥–٤٨٦، ابن الفرات : تاريخ (المخطوطة) ١/٨٣–٨٨، الذهبي : دول ٢/٢٦–٢٧، رنسمان ٢/٢١٢–٢١٥: ويرى (Fink) انه ، بالرغم من العداء والقتال المستمر بين الاتراك والصليبيين في الشام ، فانه كان بوسعهم ان يتحالفوا لمواجهة الاعداء القادمين من وراء بلاد الشام. الا اننا بتتبعنا لسير الاحداث اتضح لنا خطأ وجهة نظر Fink هذه. ذلك ان القوات الاسلامية التي حالفت صليبيي الشام لم تقتصر على بلاد الشام ، فايلغازي كان يحكم في ديار بكر بعيدا عن حدود الشام ، كما ان قوات السلطان ضمت – من جهة اخرى – عناصر من مسلمي الشام مثل خير خان وبني منقذ. فلم يكن الصراع في هذه المعارك – اذن – ذا مسحة اقليمية وانما كان سياسيا محضا.

(٢١٩) رنسمان ٢/٢١٦.

(٢٢٠) العريني : الحروب الصليبية ١/٣٢٩.

هنا – على سبيل المثال – ما ذكره ابن الاثير في احداث عام (٥١٥) حيث يقول ((في صفر اقطع السلطان محمود مدينة الموصل واعمالها وما يضاف اليها... الامير آق سنقر البرسقي، وتقدم الى سائر الامراء بطاعته، وامره بمجاهدة الفرنج واخذ البلاد منهم[٢٢١])) وما ذكره في احداث عام (٥١٨هـ) حيث يقول ((عزل البرسقي عن شحنكية العراق، وارسل اليه السلطان يامره بالعودة الى الموصل والاشتغال بجهاد الفرنج[٢٢٢])). ثم جاء ترشيح زنكي – فيما بعد – دليلا واضحا على حرص السلاجقة على منح امارة الموصل واقاليمها للقائد الذي يستطيع ان يتصدى للغزاة بجدارة وامانة.

إلا ان الفرق الاساسي الذي يجب ان نلاحظه ازاء موقف السلاجقة قبل معركة تل دانث انهم كانوا يبذلون اهتماما جادا في ميدان الجهاد، ويسعون الى الاشراف المباشر – عن طريق كبار امرائهم الذين كانوا يختارونهم من بلاد فارس – لتوجيه القتال. اما بعد دانث، فلم يكن الامر يعدو اصدار الاوامر والمراسيم الرسمية الى ولاتهم بمجاهدة الفرنج، ويتركون لهم بعد ذلك حرية التصرف في الحركة والقتال.

أدت الهزائم التي مني بها كل من البرسقي وبرسق الى تضاؤل دور الموصل في حركة الجهاد ضد الصليبيين ففقدت اثر الهزيمة الاولى دورها القيادي في هذا المجال، ودخلت اثر الهزيمة التالية في عزلة استغرقت سنوات طوالا، (فيما بين ٥٠٩–٥١٨هـ = ١١١٥–١١٢٤م). ولقد اسهمت عوامل عديدة، خلال هذه الفترة، في تأكيد عزلة الموصل اهمها انهماك ولاة الموصل في الصراع الذي لم يفتر بين سلاجقة العراق وبلاد فارس من اجل السلطة، وظهور الاراتقة في ديار بكر كقوة اسلامية شابة متماسكة في مجابهتها للصلبيين، وتولي زعمائها، ايلغازي وبلك، قيادة حركة الجهاد، تلك التي بدات بضم حلب الى ممتلكات الاراتقة في ديار بكر عام (٥١١هـ = ١١١٧م) واستمرت طيلة عهد ايلغازي وابن اخيه بلك اللذين حققا انتصارات حاسمة ضد الصليبيين. الا ان مقتل بلك في مطلع عام (٥١٨هـ = ١١٢٤م) وهو في قمة نشاطه ضد الاعداء، ومجيء تمرتاش بن ايلغازي الى الحكم في ديار بكر وحلب، انهى مرحلة قيادة الاراتقة لحركة الجهاد، واعاد للموصل – ثانية – دورها الاصيل في هذا الميدان، بسبب ما تميز تمرتاش به من رغبة في الدعة والمسالمة، وعكوف على الترف والرفاهية، وتساهل ازاء مطامع الصليبيين وعدم الجدية في مجابهتهم ؛ الامر الذي وضع حلب – ثانية – في مركز حرج، اذ غدت هدفا لهجمات الصليبيين الذين مدوا ابصارهم للاستيلاء عليها وتأمين ممتلكاتهم في شمالي الشام، فضلا عن اتخاذها منطلقا لمد نفوذهم باتجاه الشرق والجنوب الشرقي، اي

---

(٢٢١) الكامل ٢٢٤/١٠.

(٢٢٢) نفسه ٢٣٧/١٠.

صوب الجزيرة والعراق. ويذكر ابن الاثير كيف ان الفرنج لما ملكوا مدينة صور الساحلية، اثر مقتل غريمهم اللدود بلك الارتقي ((طمعوا وقويت نفوسهم وتيقنوا الاستيلاء على بلاد الشام، واستكثروا من الجموع. ثم وصل دبيس بن صدقة امير الحلة – الذي كان قد فر من العراق بسبب خصامه مع العباسيين والسلاجقة – فاطمعهم طمعا ثانيا لا سيما في حلب، وقال لهم : ان اهلها يميلون الى لاجل المذهب، فمتى راوني سلموا البلد الي. وبذل لهم على مساعدته بذولا كثيرة وقال : انني اكون ها هنا، نائبا عنكم ومطيعا لكم[٢٢٣]. ولم يكن دبيس يرى اي مانع من التحالف مع الصليبيين بما عرف عنه من عداء مستمر للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي[٢٢٤]. وقد تمكن من التوصل مع الصليبيين الى اتفاق تكون حلب – بموجبه – له اما الاموال فتكون لهم، فضلا عن بعض المواقع القريبة من حلب[٢٢٥].

بدأ الصليبيون هجماتهم على المناطق الزراعية المحيطة بحلب وانزلوا بها خسائر فادحة قدرت بمائة الف دينار، وقاد الهجوم اميرا انطاكية والرها يساندهما دبيس امير الحلة ثم ما لبثوا ان فرضوا الحصار على حلب من شتى جهاتها[٢٢٦] ((ووطنوا انفسهم على المقام الطويل، وانهم لا يغادرونها حتى يملكوها، وبنوا البيوت لاجل البرد والحر))[٢٢٧] ، وراحوا يشنون هجماتهم عليها، ويقطعون الاشجار المحيطة بها، كما قاموا بتخريب مشاهد كثيرة، ونبشوا قبور المسلمين وسلبوهم اكفانهم، وعمدوا الى من لم تنقطع اوصاله منهم فربطوا الحبال بارجلهم وسحبوهم امام انظار المسلمين وجعلوا يقولون : ((هذا نبيكم محمد))، واخذوا مصحفا من احدى مشاهد حلب الخارجية ونادوا : ((يا مسلم ابصر كتابك)) ثم ثقبه احد الفرنج بيده وشده بخيطين وربطه باسفل برذونه، فراح هذا يروث عليه، وكلما ابصر الفرنجي الروث على المصحف صفق بيديه وضحك عجبا وزهوا[٢٢٨]!!

لم يكتف الصليبيون بهذا، بل راحوا يمثلون بكل من يقع بايديهم من المسلمين، فاضطر هؤلاء الى مجاراتهم بالمثل، واخذت جماعات من مقاتلي حلب تخرج سرا لتغير على معسكرات الاعداء، فتقتل وتاسر ثم تنسحب الى داخل المدينة. وخلال ذلك كانت الرسل تتردد بين الطرفين

---

(٢٢٣) الكامل ٢٣٧/١٠.

(٢٢٤) GROUSSET: OP CIT., 1\625

(٢٢٥) ابن العديم : زبدة ٢٢٢/٢–٢٢٣، ابن منقذ : الاعتبار ، ص١٢٠،١٠٣–١٢١.

(٢٢٦) ابن العديم : زبدة ٢٢٣/٢–٢٢٥.

(٢٢٧) ابن الاثير : الكامل ٢٣٧/١٠–٢٣٨، ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢١٢.

(٢٢٨) ابن العديم : زبدة ٢٢٣/٢–٢٢٥، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (قسم حلب المنشور) ، ص ٤٥.

للتوصل الى اتفاق، ولكن دون جدوى، حتى ضاق الامر بالحليبيين[٢٢٩] ، فاتفقوا على ارسال وفد من اعيان حلب لاستدعاء حسام الدين تمرتاش الارتقي. وخرجوا ليلا متجهين الى ماردين، وعندما بلغوها كان اميرها منهمكا في الاستيلاء على بعض المواقع المجاورة، وكان هذا سببا في اهماله امر حلب. وكانت الرسل قد ترددت – قبل ذلك – بينه وبين البرسقي في الموصل لتوحيد جهودهما ضد الصليبيين واجلائهم عن حلب، ولكن انهماكه في توسيع امارته في ديار بكر شغله عن هذا الامر. وبقي الحلبيون في ماردين فترة من الزمن يحثون تمرتاش على انجاد حلب وهو يعدهم ويمنيهم ويماطلهم دون ان يقدم على اي اجراء جاد، فاعلموه انهم لا يريدون سوى ان يصل بنفسه وان الحلبيين سيكفونه امر الصليبيين[٢٣٠].

ازدادت الاحوال في حلب سوءا، وقلت الاقوات فيها، وانتشر المرض، وضعف جندها عن القتال بسبب الجوع والانهاك والمرض، واتبع بعض مسؤولي حلب سياسة جائرة تجاه السكان فصادوا املاكهم وسلطوا الجند عليهم[٢٣١]. وظهر للحليبين من تمرتاش الوهن والعجز[٢٣٢] ، فكتب احدهم الى الوفد في ماردين يخبرهم بما ال اليه امر حلب من الجوع والمرض واكل الميتات. فوقع هذا الكتاب بيد تمرتاش فتملكه الغضب وقال : ((انظروا الى هؤلاء يتجلدون علي ويقولون : اذا وصلت فاهل حلب يكفونك امرهم – اي امر الصليبيين – ويغدرون بي حتى اصل في قلة، وقد بلغ بهم الضعف الى هذه الحالة))[٢٣٣]. ثم امر بمراقبة الوفد كي لا يغادر اعضاؤه ماردين للاستنجاد بامير آخر. ولكن هؤلاء تمكنوا من تدبير وسيلة للهرب، ومن ثم اتجهوا الى الموصل للاستنجاد بالبرسقي[٢٣٤].

كان البرسقي حينذاك مريضا، وكان الضعف قد بلغ به مبلغا عظيما، فمنع الناس من الدخول عليه. وعندما استؤذن للوفد الحلبي بالدخول اذن لهم، فدخلوا عليه واستغاثوا به وشرحوا له الاخطار التي تحيق بحلب ومدى الصعوبات التي يعانيها اهالي المدينة، فاجابهم البرسقي : ((انكم ترون ما انا فيه الان من المرض، ولكني قد جعلت لله علي نذرا لئن عافاني من مرضي هذا لابذلن جهدي في امركم، والذب عن بلدكم، وقتال اعدائكم)). ولم تمضِ ثلاثة ايام على مقابلته للوفد الحلبي حتى فارقته الحمى وتماثل للشفاء. وسرعان ما ضرب خيمته بظاهر

---

(٢٢٩) ابن العديم : زبدة ٢/٢٢٥، ابن القلانسي ، تاريخ دمشق ، ص٢١٢، ابن الاثير : الكامل ١٠/ ٢٣٧–٢٣٨، ابن الشحنة : المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، ص٢١٨–٢١٩.

(٢٣٠) ابن العديم : زبدة ٢/٢٢٥–٢٢٦.

(٢٣١) نفسه ٢/٢٣٠.

(٢٣٢) ابن الاثير : الكامل ١٠–٢٣٣–٢٣٨.

(٢٣٣) ابن العديم : زبدة ٢/٢٢٦–٢٢٧.

(٢٣٤) المصدر السابق ٢/٢٢٧–٢٢٨، ابن الفرات : تاريخ (مخطوطة) المجلد الثاني ، ورقة ٨٥– ٨٦.

الموصل ونادى قواته ان تتاهب لجهاد الصليبيين واستنقاذ حلب. وفي غضون ايام معدودات غدا جيشه على اهبة الاستعداد. فغادر الموصل متجها الى الرحبة، وارسل من هناك الى طغتكين امير دمشق وخيرخان بن قراجا امير حمص يطلب منهما مساعدته في انجاز مهمته، فلبى هذان الاميران دعوته وبعثا بعساكرهما للانضمام الى جيش البرسقي الذي كان قد تحرك انذاك صوب بالس القريبة من حلب(٢٣٥).

من بالس ارسل البرسقي الى مسؤولي حلب وشرط عليهم – مسبقا – تسليم قلعة حلب لنوابه كي يحتمي بها في حالة انهزامه امام الصليبيين، فاجابوه الى طلبه، وسلموا القلعة الى نوابه، وما ان استتب الامر لهؤلاء واطمان البرسقي الى وجود حماية له في حالة تراجعه، حتى بدأ زحفه صوب قوات الصليبيين التي تطوق حلب(٢٣٦).

وصلت طلائع قوات البرسقي يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة (٥١٨هـ). وما ان اقترب البرسقي من المدينة بقواته المنظمة حتى كان دبيس بن صدقة اول المنسحبين، حيث بدا تراجعه صوب احدى المواقع القريبة ناشرا اعلامه البيضاء. واسرع الصليبيون في التحول الى منطقة افضل من الناحية الدفاعية، فعسكروا في جبل جوشن على الطريق الى انطاكية، وهكذا غدوا مدافعين بعد ان كانوا مهاجمين. وخرج الحلبيون الى خيامهم فنهبوها ونالوا منها ما ارادوا، بينما اتجه قسم اخر منهم لاستقبال البرسقي لدى وصوله. وقد ادرك البرسقي ما يرمي اليه الصليبيون بانسحابهم، واتخاذهم موقفا دفاعيا، فلم يتسرع بمهاجمتهم قبل ان يعيد تنظيم قواته من جديد خوفا من نزول هزيمة فادحة بعساكره قد تعرض حلب للسقوط. وارسل طلائعه الكشفية – بعد ان ابتعد الصليبيون – لرد الجيوش المتقدمة الى معسكراتها في حلب وقال – موضحا خطته هذه : ((ما يؤمننا ان يرجعوا علينا ويهلك المسلمون ؟؟ ولكن قد كفى الله شرهم، فلندخل الى البلد ونقويه وننظر الى مصالحه، ونجمع لهم ان شاء الله ثم نخرج بعد ذلك اليهم)). ومن ثم دخل البرسقي حلب وبدا بحل مشاكلها ورفع مستواها العسكري والاقتصادي والاجتماعي، فنشر العدل الاجتماعي واصدر مرسوما برفع المظالم المالية والمكوس والغاء المصادرات، وعمت عدالته الحليبيين جميعا بعد ما منوا به من الظلم والمصادرات ومن تسلط الجند عليهم طيلة فترة الحصار الصليبي لحلب(٢٣٧).

---

(٢٣٥) ابن الاثير : الكامل ٢٣٧/١٠–٢٣٨، ابن العديم : زبدة ٢٢٥/٢–٢٢٨، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ، ص٢١١–٢١٢، ابن الفرات : تاريخ (مخطوطة) ٨٨/٢ ابن خلدون : تاريخ سبط ١١٣/٨–١١٤.

(٢٣٦) ابن الاثير : الكامل ٢٣٧/١٠–٢٣٨.

(٢٣٧) ابن العديم : زبدة ٢٢٩/٢–٢٣٠، ابن الاثير : الكامل ٢٣٧/١٠–٢٣٨، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ، ص٢١١–٢١٢، ابن خلدون : تاريخ ٥٣/٥، ٢١٦–٢١٧.

لم يكتف البرسقي برفع الظلم عن السكان بل قام بنشاط واسع لجلب المؤن والغلال الى المدينة[٢٣٨] كي يخفف من حدة الغلاء ويقضي على الضائقة الاقتصادية التي يعانيها الحلبيون[٢٣٩]. وما لبث النشاط الزراعي في منطقة حلب ان عاد الى حالته الطبيعية، حيث قام المزارعون بزراعة منتجاتهم في اراضيهم التي شردوا عنها، وساعدتهم الظروف المناخية حيث هطلت مقادير كبيرة من الامطار، فاخصبت الارض، وجاءت غلالهم ذلك الموسم من اجود الغلال وازكاها، وبخاصة الحنطة والشعير[٢٤٠] ، كما عاد النشاط التجاري الى عهده السابق[٢٤١]. اعتمادا على ما تمتعت به المنطقة من امن واستقرار منذ مجيء البرسقي وجلاء الصليبيين[٢٤٢].

وهكذا استطاع البرسقي ان يحطم الطوق الذي احاط به الصليبيون حلب، وان يخلص هذا الموقع الهام من اخطر محنة جابهته طيلة الحروب الصلبيبية، وان يعيد اليه الامن والعدل والاستقرار، وينظم اوضاعه الاقتصادية والادارية والاجتماعية، ويوحده مع الموصل لاول مرة منذ بدء الحروب الصليبية ؛ الامر الذي اتاح لهذا القائد، ولعماد الدين زنكي من بعده،ان يفيد من هذه الوحدة لتحقيق انتصارات عديدة ضد الصليبيين. ذلك ان حلب هي القاعدة الثانية في الشمال، بعد الموصل، وهي الحصن الاخير الذي وقف بوجه الزحف الصليبي في المنطقة باتجاه الشرق ؛ اذ كانت تتمتع بمركز استراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية وخطوط المواصلات، وبالرغم من وقوعها بين امارتين صليبيتين هما الرها وانطاكية، الا انه كان بامكانها الاتصال بالقوى الاسلامية التركية المنتشرة في الجزيرة والفرات والاناضول وشمالي الشام، مما يعد اساسا حيويا لاستمرار حركة الجهاد وتحقيق اهداف حاسمة ضد العدو، هذا فضلا عن عمق وتوثق الصلات الاقتصادية والجغرافية بين حلب والموصل منذ ايام الحمدانيين، ومن ثم تعتبر المدينتان تكمل احداهما الاخرى.

ولقد بدأ واضحا ان اتحاد حلب مع الموصل وخضوعها لسيطرة البرسقي، اضحى يهدد كيان الصليبيين، اذ راى البرسقي، وزنكي من بعده، في هذا الاتحاد وسيلة يستطيع بها ان يقيم امارة مستقلة تتوارثها سلالته. ولما لم تكن الموصل وحدها كافية لتحقيق هذا الغرض نظرا لقربها

---

(٢٣٨) ابن العديم : زبدة ٢/٢٢٩-٢٣٠، ابن الاثير : الكامل ١٠/٢٣٧-٢٣٨، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ، ص٢١١-٢١٢، ابن خلدون : تاريخ ٥/٥٣، ٢١٦-٢١٧.

(٢٣٩) ابن الوردي : تاريخ ٢/٣٢ ابن العديم : بغية الطلب (مخطوطة) ٤/٢٧٧ وحاشية الزبدة ٢/٢٣٠، ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢١١-٢١٢، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨/١٣٣-١١٤.

(٢٤٠) ابن العديم : زبدة ٢/٢٣٠-٢٣١.

(٢٤١) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢١١-٢١٢.

(٢٤٢) المصدر السابق ، ص٢١١-٢١٢، ابن العديم : بغية الطلب (مخطوطة) ٤/٢٧٧ حاشية الزبدة ٢/٢٣٠.

من حواضر السلطنة السلجوقية، فان الاستيلاء على حلب وبلادها يزيد في توطيد مركزه وتثبيت دعائم ملكه بما تبذله من المساعدة المادية والمالية. وما يزيد في قيمة الاستيلاء على حلب، انها بفضل موقعها على ثغر المسلمين ومعقلهم تجاه الفرنج، اضفت على امير الموصل صفة المدافع عن الايمان ضد الكفار. كما ان قوة الشعور الاسلامي يجعل من العسير على السلطان ان يتخذ ضد اميرها اجراءا صارما يضاف الى ذلك ان البرسقي، باعتباره ممثلا للسلطان السلجوقي، صار له السلطة الشرعية الوحيدة بين الامارات الكثيرة وقتئذ، فصار في وسعه ان يقضي على الفوضى الفاشية بها وان يخضعها للسلطان السلجوقي. وسرعان ما غدت الامارة التي شكلها البرسقي والممتدة من نهر قويق الى نهر دجلة، نواة لما قام بعدئذ بالشام من دولة اسلامية متحدة زمن الزنكيين والايوبيين والمماليك. ولم يكن الفرنج، الذين وحد بينهم نظام الملكية في بيت المقدس، يواجهون قبل ذلك سوى بلاد تنازعتها في الشام قوى عديدة واقطاعات متفرقة زادت من ضعفها.. وما حدث من اضافة حلب الى الموصل يعتبر بدء توحيد الجبهة الاسلامية التي لابد ان تقضي في يوم من الايام على قوة الفرنج في الشام(٢٤٣).

لم يكن بوسع الملك بلدوين – بعد ان راى ما حدث – سوى العودة الى انطاكية ومنها الى بيت المقدس الذي غاب عنه مدة سنتين. الا انه لم يمكث هناك زمنا طويلا، فالبرسقي كان عنده اشد خطورة من الارانقة، اذ كان بوسعه ان يوحد المسلمين بشمال الشام تحت سلطانه، نظرا لكونه اميرا على الموصل وحلب، ولمساندة حكومة السلطان له، كما خضع لسلطانه طغتكين واميرحمص. وكان البرسقي – بعد ان أقر الاوضاع في حلب – قد غادرها في مطلع عام (٥١٩هـ = ١١٢٥م) صوب تل السلطان حيث اقام ثلاثة ايام، وتقدم من هناك الى شيزر فوصلها في السابع من صفر. واذ حرص اميرها سلطان بن منقذ على ان يكون دائما صديقا لكل رجل عظيم الاهمية، فقد سلمه رهائن الفرنج الذين كانوا قد اودعوا لدى بني منقذ ريثما يتم تنفيذ بنود المعاهدة التي كانت قد عقدت بين الارانقة والصليبيين. وقد اقام البرسقي في ارض حماة اياما لحين وصول طغتكين على راس قواته، فرحل البرسقي على راس جيش مؤلف من القوات الاسلامية المتحالفة وهاجم حصن كفر طاب الذي كان بحوزة الفرنج، وتمكن من الاستيلاء عليه في الثالث من ربيع الاخر حيث منحه لحليفه خيرخان الذي كان قد التحق به من حمص. ثم حاصر زردنا، فعجل الملك بلدوين بالمسير صوب الشمال، وقاد جيوش انطاكية وطرابلس والرها التي تألفت من ألف ومائتي فارس والفين من الرجالة لانقاذ زردنا. وسار المسلمون الى عزاز التابعة لجوسلين وشددوا هجومهم عليها، وتمكنوا من احداث ثغرات في قلعتها، الا ان قوات بلدوين ما لبثت ان ادركتهم هناك حيث دارت (في السادس من ربيع الآخر) معركة تعد من اشد

---

(٢٤٣) العريني : الحروب الصليبية ١/٤٨٥،٣٤٥-٤٨٦.

المعارك عنفا وسفكا للدماء في تاريخ الحروب الصليبية. واذ استند المسلمون الى تفوقهم العددي حاولوا الاشتباك وجها لوجه مع الفرنج، غير انه كان للفرنج من التفوق بالسلاح والقوة الضاربة مالم يطق المسلمون مقاومته، فحلت بهم هزيمة ساحقة، وقتل منهم عدد كبير جاوز الالف، واستطاع بلدوين ان يجمع من الغنائم الوفيرة التي حصل عليها مبلغ الثمانين الف دينار الذي كان يدين به لافتداء الرهائن. ومع ان المال كان من حق تمرتاش الارتقي فان البرسقي استلمه واعاد الرهائن كي يتقوى به على عدوه ويعيد حشد قواته من جديد. وجرى ارسال مبلغ اخر من المال الى شيزر لافتداء الاسرى والرهائن الذين لا زالوا محتجزين بها. وما لبثت الهدنة ان عقدت بين البرسقي والصليبيين على ان يناصفهم في الخراج المستمد من جبل السمّاق (من اعمال حلب الغربية) وبعض المواقع التي تنازعها المسلمون والفرنج، وان يحتفظ المسلمون بكفر طاب التي كانت قد منحت لامير حمص. ثم عاد البرسقي الى الموصل بعد ان ابقى في حلب حامية عسكرية[٢٤٤].

لم يكن الاتفاق بين البرسقي والفرنج نهائيا، نظرا لان الفرنج لم يحترموا ما اتفقوا عليه من قبل من الشروط[٢٤٥] ويذكر ابن العديم كيف ان الفرنج اخذوا يمنعون فلاحي المسلمين ومقطعيهم من جني ثمارهم ومحاصيلهم وفق ما نصت عليه شروط الهدنة[٢٤٦]. وفي مطلع ربيع عام (٥٢٠هـ = ١١٢٦م) قام بونز امير طرابلس بمهاجمة حصن رفنية، الذي كان هدفا للصليبيين منذ استرده منهم طغتكين سنة (٤٩٩هـ = ١١٠٥م) والذي كان يتحكم في المنفذ المؤدي الى البقيعة من جهة وادي نهر العاصي. ونهض بلدوين ملك بيت المقدس لمساندته، وخرج صاحبه شمس الخواص طالبا البرسقي، مستصرخا به، فقام ولده بتسليم الحصن للفرنج في آخر صفر (٥٢٠) بعد حصار دام تمانية عشر يوما وكان الاستيلاء على هذا الحصن ذا اهمية بالغة عند الفرنج، لا لأنه كفل الامانة والسلامة لطرابلس فحسب بل انه امن ايضا طرق الاتصال بين بيت المقدس وانطاكية. ومن ثم توجه الفرنج الى بلد حمص وهاجموا المناطق المحيطة به، وخربوا مزارعه. ولم يغادروا المنطقة الا بعد ان ادركتهم القوة التي بعث بها البرسقي بقيادة ابنه مسعود لنجدة صاحب حمص. وخلال ذلك أعاد المصريون بناء اسطولهم الذي اقلع في سنة (٥٢٠هـ = ١١٢٦م) من الاسكندرية واغار على الساحل الشامي. ولما سمع البرسقي بذلك اعد خطته على ان يقوم اثناء اغارة الاسطول المصري بهجوم من الشمال. فحشد جيشا

---

(٢٤٤) ابن العديم : زبدة ٢/٢٣٠-٢٣٢، ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢١٠، ابن الاثير : الكامل ١٠/٢٣٩-٢٤٠، رنسمان ٢/٢٧٥-٢٧٧ ويخطئ ابن العديم (زبدة ٢/٢١٦) في قوله بان بلك بن بهرام هو الذي قاد معركة عزاز ، يصحبه البرسقي وطغتكين. ومعلوم ان بلك قد قتل قبل هذا التاريخ بشهور عديدة.

(٢٤٥) نفسه.

(٢٤٦) ابن العديم : زبدة ٢/٢٣٢.

ضخما وتوجه الى انطاكية بقصد نجدة صاحب رفنية. والواقع ان المصريين ادركوا بعد ان حاولوا القيام بغارة على ارباض بيروت كلفتهم خسائر جسيمة، ان المدن الساحلية مشحونة بحاميات قوية فلم يسعهم الا العودة اما البرسقي فقد سلك طريق منبج التي كانت قراها ومزارعها قد تعرضت دوما لغارات جوسلين امير الرها، فدارت المفاوضات بين البرسقي وجوسلين لعقد هدنة اخرى على ان تكون الضياع ما بين عزاز وحلب مناصفة بين الطرفين، وان يكون القتال بينهما على غير ذلك وقد حصل جوسلين بمقتضى هذه الهدنة على المناطق التي حازتها انطاكية فترة من الزمن(٢٤٧).

اتجه البرسقي، بعد ان امن جانب جوسلين، صوب الاثارب وحاصرها في جمادي الاخرة (٥٢٠هـ) وارسل فرقة من قواته الى حصن الدير الذي يقع في اعلى شرمذا فاذعن لها، وقامت جيوشه بنهب غلال عدد من المزارع الصليبية وارسلت الى حلب. وعلى الرغم من ان قوات البرسقي استولت على السورين الخارجيين للاثارب، الا انها لم يتيسر لها الاستيلاء على المدينة لمبادرة ملك بيت المقدس لانجادها، حيث انحاز اليه في ارتاح الامير جوسلين. ورغبة منهما في تجنب الاشتباك مع البرسقي ارسلا اليه قائلين ((ترحل عن هذا الموقع ونتفق على ما كنا عليه في العام الخالي ونعيد رفنية عليك))(٢٤٨). ولم يشأ البرسقي – من جهته – ان يمضي في الحرب الحرب كيلا يتعرض المسلمون لما تعرضوا له من قبل في عزاز، فقرر عقد الصلح مع الصليبيين. غير ان بلدوين لم يلبث بعد ان جلا البرسقي بقواته عن الاثارب، ان انكر ما سبق ان عرضه على البرسقي من شروط الصلح، واهمها اعادة رفنية الى المسلمين. بل انه طالب ببلاد جديدة وقال ((ما نصالح إلاّ على ان تكون الاماكن التي ناصفنا فيها العام الماضي، لنا دون المسلمين))، فلم يقبل البرسقي ذلك، واقام فترة بحلب ترددت الرسل اثناءها بين الطرفين دون ان تؤدي الى نتيجة مقبولة من الجاذبين كما ان الغارات التي نشبت بين المسلمين والصليبيين عقب ذلك لم تات بطائل ؛ فرجع بلدوين الى القدس في رجب، وتوجه البرسقي الى حلب يصحبه طغتكين الذي كان قد التحق به قبيل ذلك عنند قنسرين، الا انه ما لبث ان مرض واوصى الى البرسقي قبل ان يغادر حلب متوجها الى دمشق، الامر الذي يشير الى مدى ثقته وتقديره للبرسقي الذي لم يأل جهدا في مقاومة الصليبيين. وبعد ان ناب البرسقي ابنه عز الدين مسعود في حلب، عاد الى الموصل فدخلها في ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ(٢٤٩).

ما من شك في ان هزيمة البرسقي غير المتوقعة في عزاز هي التي قلبت ميزان القوى في المنطقة ووضعت جدارا صلبا امام مطامح البرسقي الذي كان يامل – بعد ضم حلب الى امارته – ان يحقق للمسلمين انتصارات حاسمة ضد الصليبيين، وان يسعى لتهديد اماراتهم في

---

(٢٤٧) المصدر السابق ٢/٢٣١-٢٣٣، رنسمان ٢/٢٧٨-٢٧٩، ٢٨٩.

(٢٤٨) ابن العديم : زبدة ٢/٢٣٣.

(٢٤٩) المصدر السابق ٢/٢٣٣-٢٣٤، العريني : الحروب الصليبية ١/٤٨٨-٤٨٩، رنسمان ٢/٢٨٠.

الشمال بعد ان يوجه ضربات قوية لجيوشهم هناك. وهكذا جاءت كارثة عزاز لتنحرف بحركة البرسقي عن هدفها المرسوم. الا ان قادة الصليبيين لم ينسوا – رغم ذلك – ان البرسقي سيظل يشكل خطرا على وجودهم، اذ ادركوا ما تمنحه اياه سيطرته على حلب، وقيادته لقوى المسلمين في الشام، من امكانية واسعة لاعادة الكرة عليهم، ومن ثم اقتنع كل من الطرفين بمنطق التهادن والمحالفات، والسعي لتجنب اي اشتباك قد يجر وراءه صراعا طويلا، لم تكن للطرفين اية رغبة جادة في خوضه، نظرا لاعتقادهما بعدم جدواه. ولئن كان البرسقي قد اضاع الفرصة اثر هزيمة عزاز، فانه فتح الطريق ولا ريب بضمه حلب الى الموصل، امام زنكي الذي جاء بعد سنتين لكي يصفي الحساب مع الصليبيين.

ما لبث البرسقي ان اغتيل، اثر دخوله الموصل على ايدي طائفة الحشاشين نفسها التي كانت قد اغتالت من قبل مودودا وعددا من زعماء الجهاد ضد الصليبيين. ومن عجب – يقول ابن الاثير – ان صاحب انطاكية ارسل الى عز الدين مسعود يخبره بقتل والده قبل ان يصل الخبر اليه شخصيا، وكان قد سمعه الفرنج قبله لشدة عنايته – اي امير انطاكية – بمعرفة الاحوال الاسلامية[٢٥٠]. لكن !! ألا يلقي هذا النبأ ظلا من شك حول امكانية حدوث اتفاق مسبق بين الحشاشين والصليبيين لاغتيال المجاهد المسلم، سيما وان قتلته ربما كانوا – كما ذكر ابن العديم[٢٥١] – قوم من اهل حماة القريبة من معاقل الصليبيين ؟!

لم يبق مسعود في دست الحكم فترة طويلة اذ انه ما لبث ان توفي في العام التالي اثر مرض انتابه خلال حصاره للرحبة[٢٥٢]. ولم يكن قد اعاد – خلال فترة حكمه القصيرة – اي اهتمام لقتال الصليبيين واستئناف الدور الذي كان قد سار عليه ولاة الموصل السابقون بسبب انصرافه التام الى محاولة الاستيلاء على المواقع والحصون الشامية التابعة لطغتكين حليف ابيه، حتى ان بعض الروايات تذكر انه كان عازما على التوجه الى دمشق نفسها في محاولة للاستيلاء عليها[٢٥٣]. ورواية اخرى تذكر ان شكه في ان قتلة ابيه قوم من اهل حماة، جعله ((يضمر للشام واهله شرا عظيما)) وان وفاته ربما جاءت نتيجة سم سقاه اياه بعض انصار غريمه طغتكين[٢٥٤].

أما أخوه الصغير الذي تولى الموصل من بعده فلم يكن سوى اداة لتحكم مملوك سابق لابيه يدعى (الجاولي) الذي اسرع بتوجيه وفد الى السلطان السلجوقي كي يقر الوالي الطفل على

---

(٢٥٠) الكامل ٢٤٢/١٠.

(٢٥١) زبدة ٢٣٦/٢–٢٣٧.

(٢٥٢) انظر القسم الاول من هذا البحث للاطلاع على التفاصيل.

(٢٥٣) ابن الاثير : الكامل ٢٤٥/١٠–٢٤٦، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ١٢٦/٨، ابن القلانسي : تاريخ ، ص٢١٦–٢١٧.

(٢٥٤) ابن العديم : زبدة ٢٣٦/٢–٢٣٧.

املاك ابيه واخيه. الا ان الوفد لم يكن في الحقيقة سوى سيف ذي حدين، ولقد اطاح الحد الاخر بأنانية جاولي وعبث الصبيان، في فترة كان الصليبيون يحتشدون فيها لهجوم شامل على المعاقل الاسلامية، عندما اتفق اعضاؤه على ان يطلبوا من السلطان ترشيح قائد كفء لهذا المنصب الهام، قائد بامكانه ان يدير امر ولايته، ذات الموقع الخطير، بحزم وجدارة، وان يتصدى للصليبيين مواصلا المسير على ذات الطريق التي سار عليها ولاة الموصل السابقون. ولم يكن المرشح الذي اقره السلطان وباركه الخليفة، سوى عماد الدين زنكي الذي انهى عهد ولاة الموصل، وبدا هناك عهدا جديدا[٢٥٥].

(٢٥٥) انظر : ابن الاثير : الكامل ١٠/٢٤٥-٢٤٦، وانظر القسم الاول للاطلاع على التفاصيل.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر (القديمة):

ابن الاثير : ابو الحسن عز الدين علي بن محمد الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ).

التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية (بالموصل)، تحقيق عبد القادر احمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة–١٩٦٣م.

الكامل في التاريخ،١٢ جزءا، دار الطباعة، القاهرة–١٢٩٠هـ.

البندراي : الفتح بن علي محمد الاصفهاني (ت ٦٤٣هـ).

تاريخ دولة آل سلجوق، من انشاء عماد الدين الاصفهاني (ت ٥٩٧هـ) واختصار البنداري، مطبعة الموسوعات، مصر–١٩٠٠م.

ابن تغري بردي : جمال الدين ابو المحاسن بن تغري بردي الاتابكي (ت ٨٧٤هـ).

النجوم الزاهرة في اخبار مصر، القاهرة، ١٣ جزءا، ط١، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٢٩–١٩٥٦م.

ابن الجوزي : عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي (ت ٥٩٧هـ).

المنتظم في تاريخ الملوك وامم، ٥ أجزاء، ط١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند–١٣٥٩هـ.

الحسيني : صدر الدين ابو الحسن علي بن ابي الفوارس (ت ٦٣٣هـ).

أخبار الدولة السلجوقية (المسمى : زبدة التواريخ في اخبار الامراء والملوك السلجوقية)، تحقيق : محمد اقبال، نشريات كلية فنجاب، لاهور–١٩٣٣م.

ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ).

العبر وديوان المبتدأ والخبر (ويسمى – اختصارا – تاريخ ابن خلدون)، ط بولاق: ٧ أجزاء، ١٢٨٤هـ : و ط، بيروت : ٦ مجلدات، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦–١٩٥٩م.

ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد (ت ٦٨١هـ).

وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، ٦ أجزاء، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، ط١ ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة–١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م.

الذهبي : الحافظ شمس الدين محمد بن قايماز التركماني (ت ٧٤٨هـ).

دول الاسلام، جزءان : ط٢، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند–١٣٦٤هـ.

العبر في خبر من غبر، ٤ أجزاء (الجزءان الاول والرابع تحقيق : صلاح الدين المنجد، دار المطبوعات والنشر، الكويت–١٩٦٠م ؛ والجزءان الثاني والثالث تحقيق: فؤاد السيد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت–١٩٦١م).

ابن الساعي : ابو طالب علي بن انجب تاج الدين (ت ٦٧٤هـ).

الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، عني بنشره مصطفى جواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد–١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م.

مختصر اخبار الخلفاء (اختصر من قبل مؤرخ مجهول في اواخر سنة ٦٦٦هـ)، ط١، المطبعة الاميرية ببولاق، مصر–١٣٠٩هـ.

سبط بن الجوزي : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي (ت ٦٥٤هـ).

مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، جزءان، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد، الدكن، الهند (١٣٧٠هـ = ١٩٥١م).

السيوطي : جلال الدين بن عبدالرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١هـ).

تاريخ الخلفاء، ط٢، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة، مصر–١٣٧٨هـ = ١٩٥٩م.

أبو شامة : شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ).

كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزءان، تحقيق : محمد حلمي محمد احمد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة–١٩٥٦م.

ابن الشحنة : ابو الوليد محمد (ت ٨٨٣هـ).

روضة المناظر في اخبار الاوئل والاواخر، منشور بحاشية الكامل لابن الاثير، في الأجزاء٩،٨،٧، دار الطباعة، القاهرة–١٢٩٠هـ.

ابن الشحنة : محمد الحلبي الحنفي (ت ٩٢١هـ).

الدار المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تعليق : يوسف بن اليان سركيس الدمشقي، المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين، بيروت–١٩٠٩م.

ابن شداد : عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم (ت ٦٨٤هـ).

الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، قسم الجزيرة : مخطوطة (اكسفورد Bodi. Marsh 33 رقم) ؛ قسم حلب : تحقيق : دومينيك سورديل، المعهد الفرنسي، دمشق–١٩٥٣م ؛ قسم لبنان والاردن وفلسطين : تحقيق : سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق–١٩٦٢م.

ابن العبري : غريغوريوس الملطي (ت ٦٨٥هـ).

تاريخ مختصر الدول، تحقيق : انطوان صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت–١٩٥٨م.

ابن العديم : كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ).

بغية الطالب في تاريخ حلب،٣ مجلدات (مخطوطة)، دار الكتب، القاهرة، رقم ١٥٦٦.

زبدة الجلب من تاريخ حلب، حزءان، تحقيق : سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق–١٩٥٤م.

ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ).

شذرات الذهب في اخبار من ذهب، ٨ أجزاء، مكتبة القدسي، القاهرة–١٣٥٠هـ.

الغزي : كامل بح حسين بالي الحلبي (ت ١٢٧١هـ).

نهر الذهب في تاريخ حلب، حزيران، المطبعة المارونية، حلب–١٣٤٢هـ.

الفارقي : احمد بن يوسف بن علي بن الازرق (ت ٥٧٢هـ).

تاريخ آمدوميا فارقين، (مخطوطة) رقم (Oxford ,6, 310)، نشر قسمها الاول: بدوي عبداللطيف عوض، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة–١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م.

أبو الفدا : الملك المؤيد اسماعيل بن عمر (ت ٧٣٢هـ).

المختصر في اخبار البشر، مجلدان، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم الحنفي (ت ٩٠٧ هـ).

تاريخ الدول والملوك، ١٨ مجلدا (مخطوطة)، دار الكتب في القاهرة، رقم ٣١٩٧.

ابن القلانسي : أبو يعلي حمزة (ت ٥٥٥هـ).

ذيل تاريخ دمشق، تحقيق : آمدروز، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت–١٩٠٨م.

ابن كثير : اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ).

البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ جزء، مطبعة السعادة، القاهرة–١٩٣٢هـ.

المقريزي : تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ).

السلوك لمعرفة دول الملوك، ٦ أجزاء، تحقيق : محمد مصطفى زيادة، دار الكتيب المصرية، القاهرة–١٩٣٦م.

ابن منقذ : اسامة بن مرشد الكناني الشيرزي (ت ٥٨٤هـ).

كتاب الاعتبار، تحقيق : فيليب حتى، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة–١٩٣٠هـ.

ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ).

مفرج الكروب في أخبار بني ايوب، ٣ أجزاء، تحقيق : جمال الدين الشيال، جامعة فؤاد الاول، القاهرة–١٩٥٣م.

ابن الوردي : زين الدين عمر (ت ٧٥٠ هـ).

تتمة المختصر في تاريخ البشر، حزيران، جزءان، المطبعة الوهبية، القاهرة–١٢٨٥هـ.

ياقوت الحموي : شهاب الدين بن عبد الحموى الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ).

معجم البلدان : ٦ أجزاء، تحقيق : فستنفلد، ليبزك–١٨٦٦م.

المراجع الحديثة :

المراجع-العربية :

جوزي : بندلي

من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام، دار الروائع، بيروت- ؟.

حبشي : حسن

عامل الفرنجة وحجاج بيت المقدس، مترجم : عن مؤلف مجهول، دار الفكر العربي، القاهرة-١٩٥٨.

خليل : عماد الدين.

الامارت الارتقية في الجزيرة والشام، مؤسسة الرسالة، بيروت-١٩٨٠م، عماد الدين زنكي، الدار العلمية، بيروت-١٩٧١م.

رنسمان : ستيفن.

تاريخ الحروب الصليبية، ٣ أجزاء، ترجمة : السيد الباز العريني، دار الثقافة بيروت-١٩٦٧-١٩٦٨م.

زامباور : ادوارد فون.

معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي، جزءان، ترجمة واخراج : زكي محمد حسن ورفاقه، مطبعة جامعة فؤاد الاول، القاهرة-١٩٥١م.

عاشور : سعيد عبد الفتاح.

الحركة الصليبية، جزءان، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة-١٩٦٣م.

العريني : السيد الباز.

الشرق الاوسط والحروب الصليبية، الجزء الاول، دار النهضة العربية، القاهرة-١٩٦٣م.

مجلة سومر ، المجلة العشرون، سنة ١٩٦٤، بغداد.

المراجع – المترجمة

Cahen: Claude

La Syrie do Nord a L'Epoque des Criosades, PARIS, 1940.

Chalandon: F.

Essai sur La Regne dAlexis Comnene, Paris, 1900.

Grousset: Rene.

Histoire des Corsades et du Royaune France de Jerusalem, 3 Vol., Paris, 1934-1936.

Ostorgorosky: G.

History of the Byzantine State, Oxford, 1956.

Receuil des Histreins des Croisades, bub. by: Academie des Inscriptions et Belles Lettres (Albert d Aix, Guillaum de Tyr, Mathieu dEdessa, Michel le Syrin), Paris, 1841-1906.

Runciman Steven .

Ahistory of the crusades, 3 Vol. Cambridge, 1957.

Setton: K enneth. M.

Ahistory fo the Crusades, Vol. I, Pennsylvania, 1955-58.

1- Gibb: A. R. Zengi and the fall of Edessa.

2- L ewis: B. The Ismailites and the Assassins.

3- Fink: H. S. The Foundation of the Latin States: 1099-1118.

4- Ncholson: R. L. The Grouth of Latin States: 1118-1144.

Stevenson: W. B.

The Crusaders in the East, Cambridge, 1907.

Tanner: J. R. (ED).

The Cambridge Medival History, P lanned by J. B. Buy, ed. by J.R. Tanners and Others, Cambridge Univ., 1929.

Vasiliev: A. A.

History of the Byzan tine Empire, 2 Vol., Madison 1961.